نبيلة اسبانيولي

حياة صحية منذ البداية

التربية الجنسية المبكرة

ورشة الموارد العربية

نبيلة اسبانيولي

حياة صحية منذ البداية: التربية الجنسية المبكرة

يقف الأهل محتارين أمام أسئلة وسلوك الأطفال المرتبطة بما نعتبره «أموراً جنسيّاً». فهل علينا أن نمنع الأطفال من الحصول على أجوبة عن أسئلة تتعلّق بنموّ أجسادهم وقدراتهم؟ وهل ندرك الأذى بعيد المدى الذي تسبّبه ردود أفعالنا، الخاطئة في كثير من الأحيان على سلوكيّات الأطفال؟

فهل ما زال من الصحي أن ينموا أطفالنا على أجزاء مبتورة أو غامضة من المعلومات التي تؤثر عليهم طوال حياتهم؟ هل علينا أن نمنع المعلومات الجنسيّة عن الأطفال، بأي حجة كان، أو نتجاهلها؟ هل هناك طرق أفضل؟ وكيف يمكن أن نوفر التّربية العلمية الجنسيّة لأطفالنا بأنفسنا؟ وهل هناك عمر معين للبدء بالتّربية الجنسيّة؟

يحاول هذا الكتاب الإسهام في هذا الموضوع وفتح بعض النوافذ والآذان والعيون. إنه دعوة لإعطاء هذا الموضع الحيوي لأطفالنا منذ البداية، ما يستحقه من اهتمام في البحث والممارسة.

تغطي محتويات هذا المرجع المواضيع التالية:

- التّربية الجنسيّة في مجتمعنا العربيّ بين الأمس واليوم.
- مفهوم التّربية الجنسيّة الشّموليّة، والمضمون والأسس.
- مراحل النّموّ والتّربية الجنسيّة في كلّ مرحلة، بين عام و٦ أعوام.
- أسئلة الأطفال وأسس الإجابة عنها.
- التّربية الجنسيّة الشّموليّة في الحضانة والرّوضة.

A Healthy Living from the Beginning: Early Sexual Education.
By Nabila Espanioly.
Third edition 2012
Published by: The Arab Resource Collective, ARC. P.O.Box 13-5916, Beirut-Lebanon.
www.mawared.org ; arcleb@mawared.org
(First & second editions published by AL-Tufula Center, Palestine).
IBSN 978-9953-460-22-1

ورشة الموارد العربية

حياة صحية منذ البداية

التّربية الجنسيّة المبكرة

المؤلفة: نبيلة أمين اسبانيولي

من مواليد الناصرة في فلسطين، ١٩٥٥، حيث تعيش وتعمل.
أخصائية نفسيّة علاجية.
مديرة "مركز الطّفولة" في الناصرة الذي أسسته مع مجموعة من النساء المهنيات عام ١٩٨٩.
ناشطة ميدانيّة فلسطينيّة نسويّة منذ عام ١٩٧٥ في جمعيات عدة. وضعت عدة كتب في مجال الطفولة المبكرة منها: "حضانة الطفل وتنشئته"، "الروضة: مبنى برنامج وفعاليات"، "الألعاب والنمو". وشاركت في اصدار حقائب للطفولة المبكرة منها: "النباتات والهوية" "انا وبلدي"، ونشرت العديد من الموارد والمقالات في موضوع المرأة الفلسطينية ونضالاتها.

حياة صحية منذ البداية

التّربية الجنسيّة المبكرة

تأليف: نبيلة اسبانيولي (أخصائية نفسية)

الطبعتان الأولى والثانية: مركز الطّفولة- فلسطين.

المراجعة اللغويّة: منى سروجي زريق (الطبعة الأولى)، منى ظاهر (الطبعة الثانية).

الطبعة الثالثة ٢٠١٢

ورشة الموارد العربية - بيروت

حياة صحية منذ البداية: التّربية الجنسيّة المبكرة

تأليف: نبيلة اسبانيولي

الطبعة الثالثة: ورشة الموارد العربية، ٢٠١٢
(الطبعة الأولى والطبعة الثانية: مركز الطفولة، الناصرة) ٢٠٠٤

الناشر: ورشة الموارد العربية
ص ب ١٣-٥٩١٦ بيروت – لبنان؛
الهاتف ٧٤٢٠٧٥(١)(٩٦١+)؛
الفاكس ٧٤٢٠٧٧(١)(٩٦١+)؛
البريد الالكتروني arcleb@mawared.org

رقم الكتاب المتسلسل: ISBN 978-9953-460-22-1

A Healthy Living from the Beginning: Early Sexual Education.

By Nabila Espanioly

Third edition 2012 (First & Second edition published by AL-Tufula Center, Palestine).

Published by the Arab Resource Collective, ARC. POBox 13-5916, Beirut-Lebanon.
www.mawared.org; arcleb@mawared.org

IBSN 978-9953-460-22-1

الإهداء

إلى من تُمثّل معنى الدّعم
دون شروط مسبّقة
ودون انتظار المردود،
إلى أمي
وإلى من دعمني
ووقف إلى جانبي.

نبيلة

المحتويات

أكثر من كلمات شكر ٨
شعر فاضل علي ٩
تقديم: د. غسان عيسى ١١

الفصل الأول: التّربية الجنسيّة في مجتمعنا العربيّ بين الأمس واليوم ١٥

الفصل الثّاني: التّربية الجنسيّة الشّموليّة ١٩
مفهوم التّربية الجنسيّة الشّموليّة ١٩
مركّبات التّربية الجنسيّة ٢١
- التّربية الجنسيّة الجسديّة ٢٢
- التّربية الجنسيّة الوظيفيّة ٢٢
- التّربية الجنسيّة المجتمعيّة ٢٤
- التّربية الجنسيّة النّفسيّة ٢٤

أهداف التّربية الجنسيّة الشّموليّة ٢٥
أسس التّربية الجنسيّة الشّموليّة ٢٧
- التّربية الجنسيّة المستمرّة ٢٨
- الإجابة بالتّدريج ٣٠
- تتمّ في جوّ حواريّ ٣٠
- الأهل والمربّون هم نماذج لأطفالهم ٣١
- إستعمال النّبرة العاديّة واللغة الطّبيعيّة والصّحيحة ٣٢
- إعتماد الصّحّة في المعلومات ٣٣
- شموليّة التّوجّه ٣٤

الفصل الثّالث: مراحل النّموّ والتّربية الجنسيّة في كلّ مرحلة ٣٦
المرحلة الأولى: السّنة الأولى من عمر الطّفل ٣٨
المرحلة الثّانية: السّنة الثّانية من عمر الطّفل ٤٠
المرحلة الثّالثة: من ٣-٦ سنوات ٤١
المرحلة الرّابعة: من ٧-١٢ ..... ٤٣
الظواهر الجنسيّة الأساسيّة ٤٤

- حبّ الاستطلاع الجنسيّ ٤٤
- إستكشاف جسمه وأجسام الآخرين من حوله ٤٤
- مداعبة الأعضاء الجنسيّة ٤٥
- اللعب القسريّ في الأعضاء الجنسيّة ٤٧
- التّعرّي ٤٨
- لعبة الطّبيب ٤٨
- ظواهر أخرى ٤٨

تلخيص ٥٠

الفصل الرّابع: أسئلة الأطفال ٥٢
أسس الإجابة عن أسئلة الأطفال ٥٢
نماذج لأسئلة ممكنة ٥٤
- كم يجب إبلاغ الطّفل؟ ٦٠
- التّعلّم من الطبيعة ٦٠
- أخ جديد أو أخت جديدة ٦٠
- إذا لم يسأل الطّفل؟ ٦١

الفصل الخامس: التّربية الجنسيّة الشّموليّة في الحضانة والرّوضة ٦٤
أهداف التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة ٦٦
تربية جنسيّة خالية من تقسيم الوظائف ٦٧
بعض الأفكار حول التّربية الجنسيّة في الحضانة ٦٩
توصيات عمليّة للعمل في الرّوضة ٧١

المراجع ٧٥

أكثر من كلمات شكر

آمل أن تعبّر هذه الكلمات عن شكري وامتناني لجميع طاقم الشّريكات في مركز الطّفولة، على الدّعم المتواصل في تبادله وعلى ما تبذله كلّ واحدة لخلق نموذج الشّراكة الحقيقيّة بالرّغم من الصّعوبات.

أبدأ بمنى سروجي زريق على مراجعتها الطّبعة الأولى من الكتاب لغويًا ومهنيًّا، وعلى ملاحظاتها الّتي أضفت الوضوح والدّفء عليه.

وإلى حنان كركبي جرايسي على مراجعتها النّقديّة من وجهة نظرها المهنيّة والعمليّة كونها تعايش الأطفال يوميًّا وحياتيًّا كأم. ثم إلى سهام بدارنة الّتي أغنت الكتاب بملاحظاتها حول الرّؤية الصّحيّة.

الشّكر كلّه لفاتن دويرينعرة على تصميم الغلاف في طبعته الأولى والرّسومات الدّاخليّة. وأخيرًا للعزيزة يولا نصار حلو على طباعتها للكتاب، وإلى الأخت منى ظاهر على مراجعتها النّهائيّة للكتاب في طبعته الحاليّة.

نبيلة

ملاحظة لا بدّ منها:

نستخدم اللغة بالصّيغة المؤنّثة والمذكّرة لنتفادى التّغييب، حيث تعرض نصوص بصيغة المذكّر ونصوص أخرى بصيغة المؤنث، وفي كلا الحالين الصّيغة الغائبة حاضرة. فحينما نستخدم كلمة طفل أو طفلة، فإنّنا في الحالين نعني الطّفل والطّفلة. وهكذا فالصّيغة الغائبة حاضرة.

الطّفلة

تدعى إنسانة

والطّفل

يسمّى إنسان

بهما

يتساوى الميزان

فاضل علي
(شاعر وكاتب قصص وشعر للأطفال)

تقديم

في إطار سعيها إلى مواجهة تحديات ترجمة حقوق الإنسان، وبالتحديد حقوق الطفل، إلى واقع، عملت ورشة الموارد العربية منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي، على رسم مسار لرعاية وتنمية الطفولة المبكرة في العالم العربي أتّسم بالتشاركية والتشبيك بين المهنيين وأصحاب المصلحة. واستهدف عملها توفير المعرفة والموارد اللازمة للعاملات والعاملين والأهل وغيرهم في هذا المجال. وقد ترجم ذلك الجهد الجماعي في أنشطة وموارد عديدة لا سيما منها صياغة «النهج الشمولي التكاملي الدمجي» في رعاية وتنمية الطفولة المبكرة في دليل عمل من ثلاثة أجزاء هو «الكبار والصغار يتعلمون»[١].

يقوم النهج الشمولي التكاملي الدمجي على عمودين أساسيين هما إتفاقية حقوق الطفل وعلم النفس النمائي. كلاهما ينظر إلى الطبيعة التكامليّة لنمو الطفل في خطوات متسلسلة يمكن التنبؤ بها، تتخللها فتراتُ تكون فيها جاهزيّة الطفل للتعلّم في أوجها مما ينعكس على التوجهات المحددة لبرامج رعاية وتنمية الطفولة المبكرة. ويكفل كلاهما العمل على حقّ كلّ طفل في:

- الصحة والخدمات الصحية: توفير الغذاء المناسب والكافي، والماء النظيف، والمرافق الصحية، والرعاية الصحية لكل الأطفال (المادة ٢٤ من الإتفاقية).
- التربية والتعليم والثقافة: تطوير المعرفة، والمهارات، والهويّة الثقافية عند الطفل، وضمان حقّه في اللعب، وفي التمتّع بأوقات الفراغ، وفي النشاط الثقافي (المواد ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١).
- الرعاية والمستوى المعيشي الملائم: إدراك حقوق وواجبات الوالدين كجزءٍ لا يتجزأ من عملية توفير البرامج النوعيّة للأطفال (المواد ٥، ١٨، ٢٧).

هذا يعني الانطلاق من مركزيّة الطّفل ومن أن الطفولة مرحلة عمرية قائمة ومتكاملة في حدّ ذاتها، ومن حقّ الطفل أن يحياها بكاملها، بالإضافة إلى الاعتراف بعوالمه الداخليّة وتجاربه وميوله ورغباته واهتماماته ومكونات هويّته الثّقافيّة وقيمه الخاصّة. وهذا يدفع باتّجاه تأسيس نهج حقوقيّ في العمل في مجال الطّفولة المبكرة، ويدعم استخدام استراتيجيّات ملائمة في إطار التّقاليد الثّقافيّة المحلّيّة.

١ د. جاكلين صفير وجوليا جيلكس: "الكبار والصغار يتعلمون:النهج الشمولي التكاملي في رعاية وتنمية الطفولة المبكرة.. ورشة الموارد العربية. ٢٠٠٣

وينظر النّهج الشّموليّ التّكامليّ الدمجي إلى كلّ الأطفال بدون تمييز، وإلى الطّفل «ككلّ واحد موحَّد» تتزايد قدراته باستمرار، مما يحتّم ضرورة وجوده في بيئة داعمة، تحترم حقوقه وتوفر له الفرص للمشاركة. كما تشمل هذه النظرة كلّ جوانب النّموّ التي تؤثّر كلّ منها على الجوانب الأخرى وتتأثر بها، وجميعها مهمّة بالقدر نفسه. لذلك، ينمو الطفل ويتعلّم من خلال تفاعله ونشاطه في كافة مجالات حياته. وتتجاوز أهمية المرحلة المبكرة في صياغة مستقبل الطفل وحياته الصحية كل ما كانت معرفتنا وتقاليدنا في التربية والتنشئة تختزنه حتى وقت قريب مضى. وهنا يشمل جانباً مهماً للغاية في تطوير الطفل تطوراً سليماً هو الجانب الجنسي.

ضمن هذه الصورة الكلّية تبرز أهمية التربية الجنسية المبكرة جزأً لا يتجزأ من المنهج الشمولي التكاملي الدمجي، وحقاً أساسياً من حقوق الطفل الكل الواحد الموحد في البقاء والنماء، وفي عدم التمييز الجنساني، وفي الاستكشاف والمعرفة والمشاركة، ما يحقق مصلحته الفضلى في بيئة داعمة توفر له التكافؤ في الفرَص المتاحة له في الرعاية والتنمية المناسبين.

الزميلة نبيلة إسبانيولي، تعتصر في هذا الكتاب، معرفتها الأكاديمية وكذلك نتيجة خبرتها الميدانية الواسعة في مجال تنمية ورعاية الطفولة المبكرة، وكانت عضواً أساسياً في المجموعة التي بلورت رؤية عربية الإطار للنهج الشمولي التكاملي الدمجي. وهي في كتابها «حياة صحية منذ البداية: التربية الجنسية المبكرة»، تواصل نقل المعرفة عن هذا الجانب الحيوي من حياتنا وحياة أطفالنا إلى المهنيين والأهل والقراء عموماً، وتشجع على تكثيف الإضاءة على تلك الجوانب المهمة المهملة من تنمية ورعاية الطفولة المبكرة، وفي رسم المسارات المستقبلية لهذا النهج.

د.غسان عيسى
المنسق العام
ورشة الموارد العربية
بيروت، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١

مقدّمة

يطوّر كلّ مجتمع البنية التّحتيّة الملائمة لطبيعته، فنرى أنّ المجتمعات الزّراعيّة مثلاً تختلف عن المجتمعات الصّناعيّة، والمجتمعات المدنيّة مختلفة عن المجتمعات القرويّة، فكلّ مجتمع يتبنى ويبني مؤسّسات، معتقدات وقيمًا تختلف عن المجتمعات الأخرى اختلاف الخلفيّة الاجتماعيّة، والتّاريخيّة، والدّينيّة، والثّقافيّة والاقتصاديّة، ويتلاءم مع احتياجاته في المرحلة التّاريخيّة المعيّنة.

يعتبر المجتمع العربيّ مجتمعًا في مرحلة انتقاليّة، من مجتمع بغالبيّته زراعيّ إلى مجتمع خدماتيّ مصنّع. وتتميّز هذه المرحلة بتناقضات مختلفة، بخاصّة في القيم. فكون المجتمع في مرحلة انتقاليّة يعني الانتقال إلى نوعيّة مختلفة، ليست بالضّرورة أفضل في جميع جوانبها من الأولى ولكنّها تلائم أكثر الشّروط الاجتماعيّة، الاقتصاديّة والتّاريخيّة المتواجدة اليوم، كما إنّ الانتقال من نوعيّة مجتمع إلى أخرى لا بدّ أن يتميّز بتغيير في الحاجات والقيم، وبالتّالي بانبثاق صراعات جديدة. فهنالك مجموعات تعارض التّغيير إذ لم تر حتميّة التّغيير بعد، وهنالك مجموعات معنيّة بالمحافظة على الوضع القائم للحفاظ على مصالحها الخاصّة، المحافظة على المعروف الآمن خوفًا من المجهول.

ومثل هذه الصّراعات كثير اليوم في مجتمعنا. فالتّغيير الحاصل فيه منذ أكثر من نصف قرن – رغم أنّه في غالبيّته قسريّ نتيجة للظّروف التّاريخيّة الّتي مرّت بها منطقتنا منذ الاحتلال التّركيّ وما لحقه من انتداب بريطانيّ وتغلغل الحركة الصّهيونيّة والذي رافقه من تشريد شعبنا الفلسطينيّ وهدم البنية التحتيّة ومصادرة الأراضي – لهو تغيير تلازمه حاجات جديدة ومشاكل جديدة يجب مواجهتها.

كذلك فالتّطوّرات العالميّة الّتي تسعى إلى عولمة الثّقافة بل "أمركتها" وجعل أبناء الكرة الأرضيّة جميعهم يشاهدون المسلسلات التّلفزيونيّة نفسها، ويأكلون الهمبورغر ويشربون الكوكا كولا هي من نتائج الاستعمار الثّقافيّ الجديد والمتجدّد تجعلنا في أمسّ الحاجة لمواجهة القضايا الناتجة والتّعامل معها.

إحدى هذه القضايا المهمّة تتعلّق بالتّربية الجنسيّة. فعندما نتحدّث مع الأمّهات أو الآباء حول هذا الموضوع، كثيرًا ما نسمع أُمًّا تتحدّث عن خوفها حين رأت ابنتها ابنة التّسعة أشهر تداعب فرجها، أو حين رأت ابنها يداعب عضوه أو لاحظت انتصابه نتيجة لذلك، أو لاحظت إفرازات لدى الطّفلة، من دون أن تعلم هل هذا الأمر طبيعيّ أم شاذ. أخافت هذه الأمور الأم أو أحرجتها، فأدخلتها في ضغط نفسيّ جعلها تجنّد تجاربها السّابقة في مواقف مشابهة ربّما حصلت معها أو أمامها في الماضي، فنلحظها تعاقب هذا الطّفل – أو الطّفلة – لاعتقادها بأنّ تصرّفه خاطئ، وأنّه إذا عوقب فلن يعود إلى مثل هذا التّصرّف!

ويتذمّر أب آخر لأنّه سمع أنّ طفلته ابنة الثالثة والنّصف تلعب لعبة الطّبيب مع أطفال آخرين، فيقوم بمنعها عن هذا التصرّف ويهدّدها إن عادت لممارسته، فيما تتباهى أمٌّ أخرى بأنّ ابنها لا يسأل أسئلة غير لائقة وتنصح الأمّهات والآباء الآخرين بأن يحذوا حذوها مع أبنائهم، إذ حين لاحظت أنّ ابنها يلعب بقضيبه ضربته على يده مرّة ومرتين وثلاث فلم يعد إلى ذلك، ثمّ ضربته عندما رأته يلعب لعبة الطّبيب وهكذا فقد "تربّى" ولم يعد إلى هذه التّصرّفات!

ولعلّ أكثر الأخطاء الّتي يقع فيها البالغون في تحليل تصرّفات وسلوك الأطفال مرتبطة بما نفهمه كسلوك جنسيّ، فتعامل الكثيرين مع سلوكيّات الأطفال على أنّها سلوكيّات شاذّة يدفعهم إلى منع الأطفال من إيجاد الإجابة عن أسئلة تتعلّق بنموّ أجسادهم وقدراتهم. وفي كثير من الأحيان فإنّ الإساءة الّتي تسبّبها ردود فعل الرّاشدين الخاطئة على سلوكيّات الأطفال تسبّب لهم أذى بعيد المدى.

نسمع الكثير من التّساؤلات والاجتهادات كمحاولة للإجابة أو لعدم الإجابة: نسمع من يحاولون منع المعلومات الجنسيّة عن الطّفل بحجّة أنّها تضرّ ولا تفيد، ونسمع من يستفهم عن توقيت البدء بالتّربية الجنسيّة، وما عليه أن يفعل وكيف يتعامل مع طفله: هل يجب أن يتجاهل أو أن يعاقب أطفاله على سلوكيّاتهم وأسئلتهم؟ أم هنالك طريقة أخرى أفضل؟ هل عليه التّوجّه للاستشارة؟ كيف؟

نسمع بعض الأهل يطرحون عدّة أسئلة بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين أطفالهم، ويقفون محتارين حول كيفيّة الإجابة عن هذه الأسئلة. في العديد من الحالات لا يستطيعون الإجابة عن أسئلة أطفالهم إمّا نتيجة الخجل أو الحرج، أو نتيجة للجهل أو لاعتقادات خاطئة تمنعهم من الإجابة عن بعض الأسئلة، وفي كثير من الأحيان تراهم يحكمون على الأمور تحت تأثير الخوف أو الخجل أو الاعتقادات الخاطئة.

فكم منّا وقف حائرًا لا يعلم هل يُجيب عن أسئلة طفله أو طفلته، أم لا؟ وإذا أراد الإجابة فبماذا؟ هل تضرّ إجابته بطفله أو طفلته؟ هل هي كافية؟

كم منّا من وقف مُحتارًا وتساءل وشارك الآخرين حيرتهم ولم يجد الإجابة؟

قد نسمع الكثيرين يقولون: نحن لم نتلقَّ تربية جنسيّة وها نحن أصحّاء وآباء وأمهات صالحون، فلماذا يجب أن نوفّر التّربية الجنسيّة لأطفالنا؟

نعم، لقد كبرنا وتربّينا مع أجزاء مبتورة من المعلومات مصدرها ذاك الصّديق أو تلك الصّديقة، وربّما كان المصدر من كتاب مخبّأ لا تبصره عيون الوالدين، ممّا سبّب لغالبيّتنا الخوف أو الدّهشة أو الحرج أو الغضب. بعضنا استطاع التّغلّب على هذه المشاعر والبعض بقي يُعاني يبحث عن طريقة للتّخلّص منها. كما أنّنا نصادف العديد من الأشخاص الّذين لم يحصلوا أبدًا على معلومات

صحيحة، وما زالوا يعيشون وفق معلوماتهم المشوّهة، ممّا يقف حجر عثرة أمام بنائهم علاقات صحّيّة ترتكز على التّفاهم المتبادل والاحترام للحاجات والمشاعر.

إن انعدام التّربية الجنسيّة الواعية هو نمط تربويّ بحدّ ذاته، كلّنا قد حصلنا على تربية جنسيّة تضمّنت مواقف ومعلومات، اختلفت نوعيّتها ومصدرها واختلفت طريقة الحصول عليها ولكنّها أثّرت على بناء رؤيتنا الجنسيّة الذّاتيّة.

فإذا وافقنا أنّ التّربية الجنسيّة متوفّرة مهما كانت مواقفنا منها فلنبادر لاستيضاح مركّباتها ولتحديد الرّسائل الّتي نبغى توصيلها لأبنائنا وبناتنا. فلنأخذ زمام الأمور بأيدينا لتوفير المعلومات لأطفالنا، بدل أن نبقي الأمر بأيدي الصّدفة أو آخرين لا نعرفهم ولا نعرف أهدافهم. ولذلك بتوفير جوّ اجتماعيّ، عاطفيّ، نفسيّ، صحّيّ نحصل من خلاله على مبتغانا ونجعل التّربية الجنسيّة مخطّطة وموجّهة محدّدة المضامين واضحة المعالم.

هل نستطيع أن نسمح لأنفسنا اليوم بالاستمرار في الاعتقاد بأنّنا لا نستطيع التّحدّث مع أطفالنا (؟) وهل نستطيع الاستمرار في كبت جميع تساؤلاتهم؟

تختلف الإجابة باختلاف المعتقدات والتّوجّهات الّتي تحملها المُجيبة. ففي رؤوس العديد منّا يبقى الجنس مرتبطًا بالخوف أو القدسيّة أو العيب، فهو موضوع "مُخيف". مرتبط بالصّمت والمحرَّم "تابو"، وفي بعض الأحيان يختلط الأمر علينا ونشعر بالخجل أو النّدم وغيرهما من مشاعر تجذّرت فينا من خلال تربيتنا وتعاملنا مع موضوع الجنس. ونحن نعكس ذلك في تعاملنا مع أطفالنا ومع تطوّر هويّتهم الجنسيّة (جنسانيّتهم[٢]).

لهذا فمنّا من سيتذمّت ويقف في وجه كلّ محاولة للتّداول في موضوع الجنس، ومنّا يرغب بصدق في تغيير سلوكه ويعبّر عن رغبته في مشاركة أطفاله والإجابة عن تساؤلاتهم، ولكنّه لا يعرف كيف.

لهؤلاء ولأولئك نحاول هنا التّعرّض للموضوع مع العلم أنّنا لن نستطيع الإجابة عن كلّ التّساؤلات. إنّها محاولة لفتح بعض الشّبابيك وبعض الآذان والعيون، كما أنّها محاولة للمشاركة ودعوة لفتح باب النّقاش، لعلّنا نستطيع سويّة الوصول إلى ما نريده.

٢ الجنسانيّة كلمة محدثة منحوتة من كلمتيّ الجنس والإنسانيّ، نستخدمها كمرادف لـــ sexuality.

الفصل الأوّل:

التّربية الجنسيّة في مجتمعاتنا العربيّة بين الأمس واليوم

التّربية الجنسيّة في مجتمعاتنا العربيّة بين الأمس واليوم

يعتقد البعض بأنّ مجتمعنا الفلسطينيّ يفتقر إلى تربية جنسيّة، وعندما يُثار السّؤال في لقاءات الأهالي والمربّين والمربّيات "هل توجد تربية جنسيّة في مجتمعنا؟" تتوحّد الإجابة بـــ "لا" حاسمة! إذ أنّ الغالبيّة العظمى تعتقد بأنّ مجتمعنا خالٍ من التّربية الجنسيّة.

ينبع هذا الاعتقاد الخاطئ من الفكرة القائلة إنّ التّربية الجنسيّة عبارة عن برامج خاصّة نشرحها ونُجيب بها عن أسئلة الطّفلة بإجابات لغويّة. بالإضافة إلى ذلك فالمصادر المكتوبة عن التّربية الجنسيّة في مجتمعنا قليلة جدًا، وكون الموضوع "تابو"، دفع البعض إلى الاعتقاد بأنّ مجتمعنا ينفض يديه من التّربية الجنسيّة!

والحقيقة أنّ المجتمع الفلاّحيّ وبُنيته التّحتيّة الملائمة من قيم ومعتقدات وفّرا في الماضي للأطفال إمكانيّات غير مخطّطة وغير واعية لتلقّي المعلومات عن هذا الموضوع. فكون غالبيّة الأطفال قد عاشت في بيئة قرويّة طبيعيّة وفّر لهم الإمكانيّة للبحث والتّجربة واستنتاج الإجابات من مراقبتهم للحيوانات. كذلك فإنّ الأطفال تواجدوا في جميع مجالات الحياة، يشاركون في عمليّة الإنتاج الزّراعيّ وهم جزء من العائلة الموسّعة يشاركون النّساء والرّجال جلساتهم المشتركة، ممّا أتاح لهم الفرصة للحصول على معلوماتهم بشكل مباشر أو غير مباشر. إن مرافقة الطّفل لأمّه لشرب القهوة عند الجيران، مثلاً، وسماع أحاديث النّسوة كانا مصدرًا لمعلوماته، كما إنّ مرافقة الأب لشرب القهوة في المقهى وسماع أحاديث الرّجال كان مصدرًا للمعلومات أيضًا. ومرافقته أهله في الحقل للعمل وسماعه ومراقبته الرّاشدين من حوله كان مصدرًا للمعلومات أيضًا.

لا نستطيع أن نقول إنّ هذا النّموذج هو الأمثل، ولكنّه كان يتلاءم مع احتياجات المجتمع في ذلك الزّمان. كذلك فإنّ انغلاق المجتمع على نفسه سمح له بأن يحافظ على نمطه في التّربية (عدم التحدّث مع الأطفال عن موضوع "تابو" الجنس).

إنّ حبّ الاستطلاع الطبيعيّ لدى الطّفل والطّفلة بحاجة لإشباع، فإن لم نشفِ غليل الطّفل، فلا بدّ له من التّوجّه إلى مصادر أخرى غيرنا، قد تكون أطفالاً آخرين وغالبًا ما نجهل ما هي هذه المصادر، وما توفّره من معلومات.

فإذا كان بالإمكان في الماضي التأكّد من أنّ الطّفل يتعلّم أسس الحياة عن طريق التّجربة وعبر علاقته بوالديه، نستطيع أن نتأكّد اليوم أنّ الحياة مليئة بالإثارة، ومصادر المعلومات أكثر من أن نستطيع السّيطرة عليها. لقد تشعّبت مصادر المعلومات اليوم وتنوّعت ولا يمكننا تركها للصّدفة؛ وهي تشمل التّلفاز والفيديو والكابل. ولعلّ انفتاح المجتمع على وسائل الإعلام المختلفة الّتي تزخر بالمعلومات الصّحيحة والخاطئة وما بينهما، وتزخر بالمواقف الإيجابيّة والسّلبيّة حول الجنس وحول العلاقات الجنسيّة هو الدّافع الأساسيّ للعديد من الأهالي لتوفير المعلومات لأطفالهم. فاليوم لم يعد الصّديق أو الصّديقة مصدر المعلومات الوحيد.

إن انفتاح المجتمع على وسائل الإعلام العالميّة المكتوبة أو المرئيّة وما يرافقهما، زاد من الكمّ في المعلومات وغيّر من الكيف. لذا يجب أن نوفّر وسائل تستطيع الطّفلة بواسطتها التّعامل مع هذه المصادر بشكل نقديّ.

الكمّ غير محدّد، إذ يستطيع الطّفل خلال ساعة واحدة أن ينتقل بين المحطّات، ويستطيع تلقّي معلومات يفهمها أو لا يفهمها ولا يدركها ولا يستطيع التّعامل معها، لأنّنا لم نوفّر له وسائل لذلك. ولكنّها جميعًا تؤثّر على مواقفه وفي بعض الأحيان، ومع تراكمها، على سلوكه أيضًا.

أمّا الكيف فيرتبط بعدّة عوامل لدى المشاهدة؛ فلقد أثبتت الأبحاث أنّ العديد من المشاهدين، وخاصّة المشاهدين الّذين لا تتوفّر لديهم المعلومات والمعارف، يتعاملون مع ما يقدّم في التّلفاز وكأنّه حقائق حياتيّة. فالبعض لا يستطيع التّمييز بين ما يعرض في التّلفاز وبين الواقع الحياتيّ. إنّ انعدام المعلومات السّابقة يسلبهم إمكانيّة المقارنة بين المعرفة الذاتيّة المكتسبة وبين ما يقدّمه التّلفاز، فيتحوّل التّلفزيون إلى مصدر المعلومات الرّئيسيّ لهم. وهكذا يقعون في وهم اكتمال معلوماتهم، في حين تبعد المعلومات عن الكمال، لأنّ التّلفزيون حتّى في تصويره للواقع يقوم بتلخيصه لا غير، ويعجز عن توفير التّفاصيل الحياتيّة الّتي تتحوّل إلى مملّة على الشّاشة الصّغيرة. حتّى البرامج التّلفزيونيّة الهادفة لا تحلّ محلّ التّربية الجنسيّة الحياتيّة اليوميّة على الرّغم من إمكانيّة استعمالها

كوسائل مساعدة، إذ تعمل العروض المقدّمة على تلخيص الواقع لا على توضيحه، بل وقد تشوّشه في بعض الأحيان.

تجدر الإشارة أيضًا إلى أنّ التّلفزيون غير معدّ ليتلاءم مع مسار التّعلّم البشريّ، ففي الحياة الواقعيّة يحتاج الطّفل إلى تكرار السّؤال عشرين مرّة ليحصل على الإجابة عشرين مرّة كي يدرك ويذوّت المعلومة. والبرنامج التّلفزيونيّ ذو الدّقائق العشر والّذي يصوّر الفوارق الفرديّة بين البنت والصّبيّ، وكيف يأتي الأطفال إلى العالم، لا يتلاءم مع هذا المسار.

إنّ كيفيّة مشاهدة التّلفاز تؤثّر على قدرة الطّفلة على التّعلّم أيضًا. فمشاهدة التّلفزيون هي استيعاب سلبيّ، لا يوفّر للطّفلة إمكانيّة أن تسأل سؤالاً أو تحاور الجهاز، لهذا فإنّ الطّريقة الوحيدة هي التّلقّي السلبيّ، وإذا لم تجد الطّفلة من تعود إليه وتسأله حول المعلومات المقدّمة في التّلفزيون، فإنّها ستضطرّ إلى التّعامل معها لوحدها، وبالتّالي تقبل الأمر على أنّه واقع.

والتّلقّي السّلبيّ يقف حجر عثرة أمام تنمية الرّؤية الذّاتيّة الإيجابيّة لدى الطّفل، إذ أنّه يقف خارج التّجربة – لا يستطيع الفحص والتّجربة واستكشاف قدراته الذّاتيّة والتّعرّف عليها.

على الرّغم من ذلك، نسمع الكثير من الأهالي ممّن يعتقدون بأنّ التلفزيون والفيديو هما مصدران جيّدان للمعلومات لأطفالهم، وأنّه لا حاجة لتدخّلهم، فأطفالهم يراقبون التّلفاز بتركيز ويحصلون على المعلومات الكافية، غير أنّ الحقيقة تظهر أنّ أطفالنا يفتقرون إلى المعلومات، وأنّ ما يحصلون عليه من التّلفزيون ملخّص وسطحيّ، وأحيانًا كثيرة أصعب من أن يستوعبه الطّفل! كما إنّ هذه المعلومات تؤدّي في بعض الأحيان إلى صراعات بينه وبين نفسه أو بينه وبين بيئته وقيَمه الاجتماعيّة، إذ أنّ غالبيّة البرامج المعروضة في التّلفزيون لا تأخذ بالحسبان بيئتنا ومعتقداتنا، ممّا يخلق البلبلة والصّراعات لدى الطّفل. وعندما لا يجد الطّفل من يدعمه في حلّ هذه التّناقضات فإنّه سيحاول حلّها بنفسه. وبما أنّ معلوماته محدّدة فمن المتوقّع أن تكون حلوله كذلك، الأمر الّذي من شأنه أن يخلق له مشاكل في المستقبل. فالتّربية الجنسيّة هي تربية مجتمعيّة أيضًا، أي عليها أن تأخذ واقع المجتمع الّتي تُقدّم به، وتتعامل مع قيم المجتمع بشكل نقديّ فتُثير النّقاش حوله.

بعبارة أخرى، تسعى التّربية الجنسيّة لأن تكون شموليّة، إذ تأخذ بعين الاعتبار الطّفلة، حاجاتها ومراحل نموّها، والأهل وحاجاتهم وقيمهم والمجتمع وقيمه. ومن الجدير ذكره أنّ الحضارات في العالم مختلفة وقيمها كذلك. إنّها "تربية حياتيّة" ومسار اتّصال بشريّ مستمر.

إذًا، لا يمكن التّحدّث عن التّربية الجنسيّة بمعزل عن المجتمع، وعلى الأخصّ عن الأهل والمربّين والمربّيات. إنّ الخطوة الأولى لتربية جنسيّة سليمة هي تحضير أنفسنا كأمّهات وآباء، ومربّين ومربّيات. يمكننا تحضير أنفسنا بشكل فرديّ أو جماعيّ كحلقة من الأهالي لأطفال أبناء جيل واحد

أو حلقة أصدقاء، لكن من المفضّل عدم البدء بأي خطوة أو تغيير دون أن يوضّح الأمر داخليًّا – أي بيننا وبين أنفسنا، وإلاّ فإنّنا سنبثّ رسائل مزدوجة لأطفالنا من شأنها أن تبلبلهم أكثر. هنالك حاجة ماسّة لتطوير مفهوم شموليّ للتربية الجنسيّة يأخذ بعين الاعتبار الطّفل، والعائلة، والمجتمع وكلّ ما يرتبط بذلك.

الفصل الثّاني:

التّربية الجنسيّة الشّموليّة

مفهوم التّربية الجنسيّة الشّموليّة

إنّ التّطوّر الجنسيّ هو تطوّر بشريّ يخضع لقوانين ومرتبط بالصّفات الشّخصيّة للفرد. وعلى الرّغم من كونه نتاجًا لتطوّر بيولوجيّ فإنّه يمرّ بمراحل ترتبط بالنّضج وبالتّعلّم الاجتماعيّ والتّهيئة النّفسيّة. فلا نستطيع التّعامل مع كلّ الأطفال بالطّريقة نفسها. فابن السّنة يختلف بنموّه واحتياجاته وقدراته الإدراكية عن ابن السّنتين، أو ابن السّبع سنوات، إذ يُحدّد سلوك الإنسان (فضلاً عن مستوى تطوره عدّة عوامل: ثقافته، تجاربه الحياتيّة، القوى البيولوجيّة والوراثيّة المتوفّرة لديه وظروف الحياة الأخرى (الاقتصاديّة، السّياسيّة، الاجتماعيّة، النّفسيّة،...).

لهذا، لا تنحصر التّربية الجنسيّة بمفهومها الشّموليّ بتزويد الفرد بالمعلومات العلميّة والخبرات بالنّسبة للمسائل الجنسيّة فحسب، بل تتعدّاها إلى بناء شخصيّة الطّفل، ذكرًا أم أنثى واثقة بنفسها وبمن حولها، متلائمة مع مجتمعها. لذا فهي ليست عبارة عن نقل معلومات علميّة فقط، بل هي نتاج لعلاقة ورعاية مستمرّتين بين الطّفلة والبيئة القريبة بشكل خاصّ والبيئة الأوسع بشكل عام. إنّها مسار اتّصال مستمرّ متلائم مع احتياجات الأطفال واهتماماتهم ومخاوفهم ومشاعرهم. إنّها عبارة عن توفير التّجارب وتمكين الطّفل من الاستكشاف والمعرفة، استكشاف ذاته ومَن حوله، والتّعلّم من خلال هذه التّجارب، كلّ حسب قدراته ومستوى نموّه.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة تزوّد الأطفال بالمعلومات الدّقيقة جنبًا إلى جنب، مع محاولة إكسابهم

مواقف إيجابيّة متقبّلة لجنسانيّتهم[٣]، بما في ذلك أدوارهم كذكور وإناث وكأبناء بشر لهم أهمّيّة في داخل العائلة والمجتمع. وبما أنّ الاتّصال البشريّ لا يقتصر على الكلام، لذا فالتّربية الجنسيّة الشّموليّة تتعامل مع المعلومات الصّحيحة والخاطئة الّتي نتلقّاها من المصادر المختلفة حول النّموّ الجنسيّ. وهذه المعلومات هي مركّب من مركّبات التّربية الجنسيّة، بالإضافة إلى أنّ المواقف والقيم الواعية وغير الواعية الّتي ذوّتناها خلال مسار نموّنا هي أيضًا مركّب آخر للتّربية الجنسيّة، والّتي تنعكس في أفكارنا وأعمالنا والمصطلحات الّتي نستعملها في حديثنا وتؤثّر بمن حولنا، خصوصًا أطفالنا.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة هي أيضًا سلوكيّات صادرة من بيئة الرّاشدين القريبة من الطفل والطّفلة، ومن الأطفال الآخرين بين بعضهم البعض، وهي نماذج لعلاقات شائعة بين الجنسين.

تتناول التّربية الجنسيّة الشّموليّة جميع أبعاد التّربية، بما في ذلك البُعد العاطفيّ والعلاقة الوجدانيّة الّتي تجمع بين الأفراد في العائلة. ولا تغفل التّربية الجنسيّة الشّموليّة مركّبًا أساسيًّا من مقوّمات الخبرة الجنسيّة وهي اللذة الّتي تكتشفها الطّفلة أو الطفل في سنّ مبكرة جدًّا، وتحتاج إلى الاعتراف بشرعيّتها.

تتعامل التّربية الجنسيّة الشّموليّة مع النّموّ الجنسيّ كجزء لا يتجزّأ من نموّ الفرد – يؤثّر ويتأثّر من العوامل الوراثيّة أو البيئيّة الّتي تؤثّر في النّموّ.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة تتعامل مع الفرد كجزء من عائلة ومجتمع، وحياته متأثّرة بالظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة الّتي تمرّ بها عائلته ومجتمعه، لهذا نسعى للتّنسيق بين جميع الأطراف المهتمّة بتطوّر الفرد.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة تهتمّ بجميع جوانب التّربية: البيولوجيّة، والنّفسيّة، والاجتماعيّة والوظيفيّة. إنّها تهتمّ ببناء جنسانيّة الطّفلة كجزء من أفراد عائلة ومجتمع معيّن، ضمن الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة الخاصّة بهذه الطّفلة وهذه العائلة وهذا المجتمع.

وعليه فإنْ أردنا تربية جنسيّة بتوجّه شموليّ، فإنّه يتحتّم علينا أن نأخذ بالحسبان جميع جوانب ومركّبات الحياة.

٣ سأستعمل مصطلح "الجنسانيّة" هنا للدّلالة على أنّ الجنس ليس مفهومًا جامدًا بل جزءًا من مبنى الشّخصيّة، بدل مصطلح "الهويّة الجنسيّة". فالحياة الجنسيّة متعددة الأبعاد: كالسّلوك الجنسيّ، المواقف الجنسيّة، الأفكار والتّخيّلات الجنسيّة،.. والحياة الجنسيّة ليست سلوكًا فقط بل مشاعر وأفكارًا ومعتقدات. كما أنّني أستعمل هذا المصطلح للدّلالة على الدّيناميكيّة: فالنموّ الجنسيّ هو عمليّة مستمرّة تحدّد هويّتنا الجنسيّة والعاطفيّة والاجتماعيّة، وليس فقط ميلنا ورغبتنا الجنسيّة، كما أنّه يحدّد انتماءنا الجنسيّ وكيفيّة تعاملنا مع الجنس الآخر ومع أنفسنا بمنطلقات إنسانيّة، لذا فالهويّة الجنسانيّة هي قِيَميّة – تحتوي على جميع القيم الإنسانيّة.

إنّ غياب تربية جنسيّة واعية ومخطّطة هو أيضًا تربية، فأيًّا كان موقفكم من التّربية الجنسيّة كمبدأ، فإنه سيؤثّر على سلوككم تجاه الطّفل الذّكر أو الأنثى، وسيساهم في بناء أفكاره عن ذاته، وقدراته، وهويّته وعن البيئة الّتي حوله وبالتّالي سيساهم في تربيته، بغضّ النّظر إن كانت صحيحة أم خاطئة، مخطّطة أو عشوائيّة.

هل التّربية الجنسيّة الشّموليّة خطرة؟

إنّ حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ سيدفع الطّفلة إلى تجارب واستكشافات للحصول على إشباع. والطّفلة الّتي تمرّ بهذه التّجارب دون دعم وبغياب شخص بالغ تثق به ليستوضح معها تجارب ومراقبات لم تفهمها، تكون عرضة للحصول على إجابات عشوائيّة من شأنها أن تضرّ بسلامتها النّفسيّة وسلامة نموّها الجنسيّ في المستقبل. وكما ذكرنا سابقًا:

لا تعيش الطّفلة في فراغ، فإن لم تجدكم بجانبها فستبحث عن مصادر أخرى، ربّما تكون سلبيّة وضارّة لها دون أن نستطيع معرفتها، لأنّنا لم نخلق جوًّا حواريًّا منفتحًا متقبّلاً.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة الملائمة لمستوى نموّ الطّفل وقدراته ومميّزاته النّمائيّة لا تضرّه ولا تصدمه، بل تزوّده بمعلومات جنسيّة بشكل طبيعيّ. وكجزء من نموّ الطّفل العامّ، فالأطفال الّذين يعلمون أنّ لديهم أهلاً راغبين في الحديث معهم حول القضايا جميعها، بما فيها القضايا الجنسيّة، هم أقلّ قلقًا من أطفال آخرين حتّى لو لم يتلقوا دائمًا إجابات كاملة. (للتعريف / الغلاف الأخير؟؟؟)

مركّبات التّربية الجنسيّة الشّموليّة

التّربية الجنسيّة الشّموليّة تتمّ في إطار مجتمع له تاريخ وثقافة ومعتقدات وضمن ظروف اجتماعيّة، اقتصاديّة وسياسيّة آنيّة تُعيد بناء هذه المعتقدات وتَلاَؤمَها لاحتياجات الإنسان. والأفراد الرّاشدون في هذا المجتمع يتأثرون بهذا المساروبؤثرون فيه، ونتاجه ينعكس في أنماط سلوكهم وتفكيرهم ووسائل تعاملهم مع الأطفال في المجتمع. تتمّ عمليّة التّربية بشكل عامّ والتّربية الجنسيّة على وجه التّحديد من خلال هذا التّفاعل.

لقد وضّحنا أهمّيّة التّربية الجنسيّة الشّموليّة وأهمّيّة أخذ الأبعاد المختلفة للتّربية الجنسيّة في الحسبان. ولكن الواقع القائم اليوم هو التّعامل بشكل مجزّأ مع مركّبات التّربية الجنسيّة، فيحاول

المربّون فصلها، بعضها عن بعض، على الرّغم من عدم إمكانيّة الفصل. فإذا استساغ معلّم أن يقدّم معلومات بيولوجيّة للأطفال عن أجسادهم فإنّه يقدّمها ليس فقط في جوّ لا يأخذ بالحسبان أسس التّربية الجنسيّة الشّموليّة بل إنّه يقدّمها بطريقته الخاصّة أيضاً، وهذه الطّريقة تكون متأثّرة بأفكاره ومعتقداته الشّخصيّة والمجتمعيّة، وبالتّالي فهو يقوم بتربية جنسيّة اجتماعيّة ونفسيّة ووظيفيّة وليس فقط بيولوجيّة. إذًا لا يمكن الفصل بين هذه المركّبات، لكنّنا هنا سنتعرّض إلى كلّ مركّب بشكل منفصل وذلك بهدف التّوضيح فحسب.

- **التّربية الجنسيّة البيولوجيّة**

تتلخّص التّربية الجنسيّة البيولوجيّة في توفير معلومات حول المبنى الجسديّ للفتاة وللفتى، وفي التّعرّف على التّغيّرات البيولوجيّة الّتي تحدث في مراحل النّموّ المختلفة وقانونيّتها ومساراتها.

إنّ مثل هذه التّربية ترتكز على توفير المعلومات عن النّموّ الجسديّ للفتاة والفتى وخاصّة موضوع العادة الشّهريّة والإخصاب والولادة وما إليه من الظّواهر الجسديّة للنّموّ الجنسيّ البيولوجيّ، وكذلك عن الإخصاب، والأعضاء الجنسيّة، والحيوانات المنويّة، والمتعة الذّاتيّة أو ما يطلق عليه "العادة السّرّيّة" – وغيرها لدى الفتى أو الفتاة. تقدّم هذه المعلومات عادة من خلال منهاج البيولوجيا أو خلال محاضرة يدعى لتقديمها الطّبيب أو الممرّضة، وذلك لتوفير المعلومات الطّبيّة عن الجسم ونموّه.

إنّ تقديم هذه المعلومات بواسطة طبيبة أو ممرّضة له دلالة خاصّة، إذ يتمّ بطريقة طبّية علميّة "تقي" المحاضِرة من خطورة الدّخول في التّناقضات الاجتماعيّة والرّسائل المزدوجة المقدّمة للطّلاّب، حيث تقدّم المعلومات المجرّدة غالبًا دون الدّخول في القضايا النّفسيّة والتّربويّة والمجتمعيّة. ولكن مقدّم المعلومات هو أيضًا إنسان لديه مواقف ومشاعر تنعكس في كيفيّة تقديمه المادّة، ممّا يؤدّي غالبًا إلى تكريس المحرّم "التّابو"، والمواقف السّلبيّة من الموضوع ويؤثّر على الطّلاّب ومشاعرهم أيضًا.

- **التّربية الجنسيّة الوظيفيّة/الجندريّة**

التّربية الجنسيّة الوظيفيّة هي تحديد وظائف ترتبط بجنس الطّفل، بشكل واعٍ أو غير واعٍ من دون الالتفات إلى رغبات وقدرات الطّفل أو الطّفلة، فتوجّه الذّكور والإناث إلى سلوكيّات وتنسب إليهما صفات محدّدة مسبقًا، إنّ التّربية الجنسيّة الوظيفيّة – النّوع اجتماعيّة تسعى لبلورة نموذج "أنثويّ" لجميع الفتيات والنّساء ونموذج "رجوليّ" لجميع الفتيان والرّجال، وبهذا فهي تربية جنسويّة[٤].

٤ الجنسويّة Sexisim نحت هذا التّعبير بالمماثلة مع العنصريّة، للتّعبير عن التّمييز المستند إلى النّوع. ويقصد به: نمذجة اعتباطيّة للذّكور والإناث تستند إلى الجنس.

تعكس هذه التّربية الاعتقادات السّائدة حول الصّفات الأنثويّة والرّجاليّة في المجتمع وما يجب أن تكون عليه هذه الصّفات، كما تسعى إلى تحديد الوظائف، فتقرّر ما يجب أن تعمل به المرأة – الأم وما يجب أن يعمل به الرّجل – الأب.

إنّ مثل هذه التّربية الجنسويّة تقف حجر عثرة أمام الفتاة والفتى، فتمنعهما من اكتشاف قدراتهما الكامنة ومواهبهما المميّزة وتحدّد إمكانيّاتهما المستقبليّة بناءً على جنسهما، دون الالتفات إلى ماهيّة قدراتهما ومدى استعدادهما لتحمّل هذه الوظيفة أو تلك. فهنالك مهارات واهتمامات ممنوعة عنهما لمجرّد كونهما ذكرًا أو أنثى.

إنّها تربية تمنع مجتمعنا من الاستفادة من القدرات الكامنة لدى أفراده ذكورًا وإناثًا وتحافظ على الوضع القائم.

تنعكس التّربية الجنسويّة في جميع مجالات الحياة، ففي الرّوضة مثلاً تتجسّد بترتيب البيئة التّربويّة وبالتّوجيهات المباشرة وغير المباشرة مِنَ المربّية للطّفل أو الطّفلة:

"زاوية المنزل للبنات"

"زاوية المكعّبات للبنين"

"الأمّ هي الّتي تطبخ"

"الأب يعمل خارج البيت"

وما إليه من توجيهات جنسويّة مباشرة وغير مباشرة تحافظ على تقسيم الوظائف التّقليديّ.
تستمرّ هذه التربية في المدرسة وفي الكتب التّدريسيّة[٥] وقصص الأطفال[٦]، وفي توجيهات مباشرة وغير مباشرة في الرّسوم المتحرّكة والمسلسلات التّلفزيونيّة وأغاني الأطفال. وتُذوّت لدينا ذكورًا وإناثًا – فنرى مثلاً امرأة تنتقد زوجها لعدم مشاركتها في أعباء المهام البيتيّة، لكنّها في الوقت نفسه ودون أن تعي تشجّع ابنها على عدم القيام بواجبه تجاه نفسه أو تجاه البيت، وتطلب من أخته أن تجلب له الماء وتقوم على خدمته وما إليه من ظواهر يطول شرحها هنا، ولكنّها ظواهر تعكس تذوّت المراة لهذه القيم، وقيامها بدور يتناقض مع مصالحها الفعليّة بكونها امرأة تعاني من هذا التّقسيم الجندري الجنسويّ.

٥ للمزيد يمكن الأطلاع على كتاب: نبيلة اسبانيولي ود.هالة اسبانيولي: "الجنسوية في أدب الاطفال العربي" إصدار مركز الطفولة ٢٠٠٢. و د. هالة اسبانيولي رهام ابو العسل نبيلة اسبانيولي ومنى ضاهر: "الجنسوية في الكتب المدرسية" إصدار مركز الطفولة الناصرة ٢٠١٠.

٦ راجع/ي كتاب نبيلة اسبانيولي و د. هالة اسبانيولي الجنسوية في أدب الأطفال، إصدار مركز الطّفولة – مؤسّسة حضانات النّاصرة سنة ٢٠٠٢، وكذلك د. هالة اسبانيولي، رهام أبو العسل، نبيلة اسبانيولي، منى ظاهر، الجنسويّة في الكتب المدرسيّة، إصدار مركز الطّفولة – مؤسّسة حضانات النّاصرة ٢٠٠٩.

- **التّربية الجنسيّة المجتمعيّة:**

هي عبارة عن أفكار ومعتقدات اجتماعيّة ترافق التّربية الجنسيّة في المجتمع العينيّ، وتؤثّر على السّلوك الجنسيّ في هذا المجتمع، وتضع القوانين الّتي تحدّد السّلوكيّات الجنسيّة لأفراده. وهذه القوانين والحدود تتغيّر بتغيّر المجتمع وتغيّر الاحتياجات الخاصّة به، كتحديد إنجاب الأطفال ضمن إطار الزّواج مثلاً، أو إبقاء كلّ ما يتعلّق بالجنس "تابو" لا نستطيع التّطرّق إليه بشكل مباشر – على الرّغم من أنّنا نتطرّق إليه في النّكات والأغاني والأحاديث المغلقة، فيغلّف الجنس بالعيب والممنوع والتّقزّز وما إليه من مشاعر سلبيّة. ويؤثّر ذلك على العديد من أفراد هذا المجتمع بشكل سلبيّ، ويقترن بالخوف وبالأفكار النّمطيّة الخاطئة، ويقف حجر عثرة أمام تنمية جنسانيّته. وبما أنّ الجنس هو جزء من حياة أطفالنا شئنا أم أبينا فسيشغل بالهم. إنّ التّكتّم في الموضوع لا يعني إلغاء وجوده، كما أنّ طمر النّعامة لرأسها بالرّمل لا يخفيها عن العيون، فهو قائم في الأفكار والأحلام ونتيجة لتلك التّربية فإنّ ذلك يكون مقترنًا بالخوف والشّعور بالذّنب أو بالتفهّم والتّقبّل إذا توافر في عائلته وبيئته.

يكتسب هذا المركّب من مركّبات التّربية الجنسيّة أهمّيّة خاصّة في خضمّ التّغييرات العالميّة الّتي قلبت العالم إلى قرية واحدة، تشاهد المسلسلات التّلفزيونيّة والأفلام نفسها وتتأثّر بها.

إنّ مجتمعاتنا العربيّة في البلاد في أمسّ الحاجة إلى مراجعة عامّة لقيمها الاجتماعيّة، لكي نستطيع المحافظة على ما نريد منها قبل أن يمحو الاستعمار الثّقافيّ جميع هذه القيم دون فرق بين الجيّد والسيّء، ولنستطيع توضيحها لأبنائنا وبناتنا أيضًا ليصبحوا على استعداد أكبر لمواجهة الظّروف الحياتيّة المتغيّرة بشكل سريع.

- **التّربية الجنسيّة النّفسيّة:**

هي عبارة عن تلك الرّسائل الّتي نتلقّاها ممّن حولنا والّتي تجعل كلّ ما يتعلّق بهويّتنا الجنسيّة من المواضيع الغيبيّة الّتي يكتنفها الغموض، والتي ترافقها الخوف والممنوعات غير المبرّرة، فاتحةً المجال للأفكار الخاطئة أن تتغلغل وتسيطر على عقولنا.

التّربية الجنسيّة النّفسيّة هي طريقة تعامل الأهل والمربّين الّذين لهم علاقة مباشرة مع الأطفال ومع نموّهم الجنسيّ، لذا فهي مرتبطة بمواقف الأهل واستعدادهم للتّربية الجنسيّة. فهنالك التّربية الجنسيّة الّتي تتوافق مع مميّزات النّموّ فتأتي متقبّلة للنّموّ الجنسيّ ومتفهّمة لخصوصيّات كلّ مرحلة من مراحل النّموّ، ومعزّزة لبلورة هويّة جنسانيّة. وهنالك التّربية الجنسيّة المتزمّتة، المانعة الرافضة لأيّ مظهر من مظاهر النموّ الجنسيّ. وهنالك أنماط مختلفة ما بين التّقبّل والتّزمّت.

التّربية الجنسيّة الشّموليّة وأهدافها

لقد ذكرنا سابقًا؛ إنّ انعدام التّربية الجنسيّة الواعية هو نمط تربويّ، لهذا فمن المفضّل أن نختار بشكل واعٍ ما نرغب في أن نقول لطفلنا، وما نرغب في إشراكه فيه وألاّ نترك مجال نموّ مهمّ يتطوّر بالصّدفة.

إنّ التّربية الجنسيّة هي نتاج لعلاقة مستمرّة بين الأهل والمربّين وبين الأطفال، وأساليب التّربية المتّبعة هنا مشابهة لأساليب التّربية العامّة. فنرى من الأهل من يحاولون منع أطفالهم من مداعبة أعضائهم الجنسيّة ومداعبتها[٧] مثلاً، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ هؤلاء الأطفال وبدافع حبّ الاستطلاع الجنسيّ سيستمرّون في مداعبة أعضائهم الجنسيّة لما يسبّبه ذلك من متعة، ومع نموّهم يتعلّمون أن هذا السّلوك يمنعه الأهل فيمارسونه بالخفاء (من هنا جاءت التّسمية "العادة السّرّيّة" في مرحلة لاحقة). وتقترن الممارسة بالشّعور بالخوف والذّنب، وفي بعض الأحيان تلجأ الطّفلة إلى معاقبة نفسها خاصّة في العائلات المتشدّدة. وقد يصل الوضع إلى مشاكل جنسيّة عند البلوغ كفقدان القدرة الجنسيّة أو الرّغبة في معاقبة الذّات واقتران الجنس بالعنف وما إلى ذلك من احتمالات.

لهذا، من المهمّ أن نسعى لأن تكون التّربية الجنسيّة شموليّة متكاملة، تعتمد وضوح الأسس والقيم وتعكسها بتعاملها وبمواقفها وسلوكيّاتها، تربية تعزّز بلورة هويّة جنسانيّة لدى أطفالنا وطفلاتنا. وعليه فإنّ أهداف التّربية الجنسيّة الشّموليّة تتحدّد بناءً على:

١. توجّه البيئة المحيطة لموضوع التّربية الجنسيّة (المدرسة، الأصدقاء، المجتمع، التّلفزيون، إلخ...). مثال على ذلك: إذا رغب مجتمع يهتمّ بإنجاب الأطفال ضمن إطار الزّواج في المحافظة على هذه الصيغة، يتحتّم عليه أن يأخذ مثل هذا الموقف بعين الاعتبار عندما يشرح للأطفال عن كيفيّة الحمل والولادة. وفي مرحلة لاحقة، وعندما يثير الطّفل أسئلة تتعلّق بالموضوع، يفضّل توضيح أن هنالك مجتمعات أخرى ترى غير ذلك، لكنّ مجتمعنا يرى أهمّيّة الإطار الرّسميّ للعائلة (الزّواج) للإنجاب. علينا التّذكّر أنّ الطّفل عرضة لمصادر

٧ يستخدم عادة في المراجع العربيّة مصطلح "الاستمناء" لدى الحديث عن مداعبة الأعضاء الجنسيّة أو اللعب بها. وهو مصطلح يرتبط بفكرة خاطئة، وكأنّ مداعبة الأعضاء الجنسيّة سلوك ذكوريّ فقط، كما يرتبط بعدم المعرفة بمراحل التّطوّر الجنسيّ ومميّزات كلّ مرحلة، إذ تبدأ مداعبة الأعضاء الجنسيّة في مرحلة مبكرة جدًّا ولا تترافق بخروج السّائل المنويّ (= استمناء). وفي الطبعة الأولى من الكتاب لم ألتفت إلى المعنى الحرفيّ للكلمة باللغة العربيّة واستخدمته أنا أيضًا كمرادف لمداعبة الأعضاء الجنسيّة إلى أن تمّ لفت نظري إلى ذلك فراجعت الأمر. مداعبة الأعضاء الجنسيّة هي ظاهرة طبيعيّة لدى الطّفل والطّفلة في مرحلة الطّفولة المبكرة. ولهذا فإنّني أستخدم في هذا الكتاب مصطلح مداعبة الأعضاء الجنسيّة للدّلالة على الظاهرة الطّبيعيّة لدى الطّفل والطّفل في مرحلة الطّفولة المبكرة ولاحقًا أيضًا وما يرافقها من متعة للطّفل والطّفولة وإشباع لحبّ استطلاعهما (ن .ا).

معلومات متنوّعة، ولهذا من المفضّل أن نفتح باب الحوار للطّفل حتّى يستطيع تذوّت القيَم والمواقف المتلائمة مع مجتمعه.

٢. شخصيّة الطّفل ومشاعره ومستوى نضجه. إنّ هويّتنا الجنسيّة متأثرة بنموّنا العامّ ومتأثّرة بنمو شخصيّتنا العامّة. فلا يمكننا التّعامل مع السّلوك الجنسيّ في مرحلة الطّفولة المبكرة بنفس طريقة تعاملنا مع السّلوك الجنسيّ في مرحلة الرّشد، تمامًا كما لا نتعامل مع السّلوك الاجتماعيّ في مرحلة الطّفولة المبكرة كمثيله في مرحلة الرّشد. لا أحد منّا يتوقّع أن يقوم الطّفل الرّضيع بتحيّة الرّاشدين من حوله كلّما دخلوا إليه في الغرفة، بينما يتوقّع الكثيرون من الطّفل الرّضيع ألاّ يداعب أعضاءه الجنسيّة مثلاً أمام الآخرين.

٣. شخصيّتك أنت ومشاعرك، أي أنّ أهداف التّربية الجنسيّة مرتبطة بمواقف الأمّ والأب والمربّين ورؤيتهم التّربويّة. فلا نستطيع مثلاً توضيح أمور غير واضحة لنا أو لا نعتقد بأنّه علينا توضيحها، ففاقد الشّيء لا يعطيه، كما أنّ معتقداتنا مهما كانت ستنعكس على تعاملنا وعلى سلوكنا، لهذا فمن المفضّل أيضًا أن نستوضح مشاعرنا – نحن الكبار – ومواقفنا من التّربية الجنسيّة قبل البدء بها.

نستطيع إجمال أهداف التّربية الجنسيّة الشّموليّة بما يلي:

١. تساهم التّربية الجنسيّة الشّموليّة في تعامل الطّفل مع هويّته الجنسيّة كجزء لا يتجزّأ من جوانب شخصيّــه المتعدّدة، فتنمّي المعتقدات والمواقف السليمة حول ذاته وهويّــته الجنسيّة وحول الآخرين، ويرى أهميّة كلّ جنس. أيْ أنّها تساهم في أن يتقبّل الطّفل جميع أعضاء جسمه وجميع مراحل نموّه. إنّها تزيد الثّقة بالنّفس وتساهم في بناء شخصيّة الطّفل المتكاملة غير المنقوصة. التّربية الجنسيّة الشّموليّة تهتمّ بتنمية الهوية الجنسانيّة للطّفل.

إنّ التّربية الجنسيّة الشّموليّة تسهم في استقلاليّة الفرد من خلال التّأكيد على تطوير قدرته على الاتّصال والتّعبير عن مشاعره الجنسيّة وحاجاته، فالإنسان الّذي لا يستطيع التّعبير عن حاجاته ورغباته، لا يستطيع فهم حاجات ورغبات الآخرين. ويكون أقلّ استقلاليّة في بناء علاقاته المستقبليّة. كما تسهم في زيادة قدرة الفرد على القرار المستقلّ، مع الأخذ بعين الاعتبار الآخرين والمسؤوليّة الاجتماعيّة.

إنّ التّربية الجنسيّة الشّموليّة تطوّر إيمان الفرد بذاته والثّقة بقدراته على الحكم في أمور يواجهها، وذلك لأنّها تساهم في زيادة حساسيّــته وانتباهه للمواقف الّتي تواجهه.

٢. تدعم التّربية الجنسيّة الشّموليّة التّوجّه الإيجابيّ للجنس ووعي الطّفلة كونها كائنًا جنسيًّا إنسانيًّا، مع التّشديد على خصوصيّة كلّ جنس وعلى المساواة بينهما. فتساعد الطّفل على فهم

دورها في الحياة والإكتفاء بها. كما تنميّ اعتزاز الطّفلة بهويّتها الجنسيّة وتساعدها على تقدير قدرات ومساهمات الجنس الآخر.

٣. إذا تعدّت التّربية الجنسيّة الشّموليّة طابعها الفرديّ إلى المجتمعيّ (أي الاتّفاق بين جميع الأطراف المشتركين في التّربية: الأهل، المربّين والمربّيات، المؤسّسات التّربويّة، وسائل الاعلام،..) فمن شأنها أيضًا خلق مواقف إيجابيّة عند الجنسين وبناء مجتمع أكثر تكافؤًا يعتمد على جنسيه – إناثًا وذكورًا، وتزيد من قدرة الفرد على العيش في جوّ عائليّ مريح وممتع مع إدراك العلاقات المتبادلة داخل العائلة والتّعامل معها، ممّا يزيد من قدرته على التصرّف كابن، أخ، أخت، ابنة، أب، أم.

٤. تسهم التّربية الجنسيّة الشّموليّة في النّموّ السّليم وتقي من التّعقيدات في الحياة المستقبليّة، فتشبع حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لدى الأطفال بشكل يفيدهم، وتخفّف من مصادر الخوف والقلق، وتساهم في إدراكهم وجود الأهل بجانبهم لدعمهم عند الحاجة، ولبناء ثقة متبادلة، كما تبني ثقة الأطفال بالأهل.

٥. التّربية الجنسيّة المقدّمة بالبيت بكرامة وحزم تسدّ مكان المعلومات الّتي تصل الأطفال من مصادر خارجيّة غير مسؤولة، وتشجع على تنمية ضوابط سلوكيّة إراديّة لدوافع ولرغبات غريزيّة، كما تنمّي الشّعور بالمسؤوليّة الفرديّة والاجتماعيّة وتنمّي الوعي والثّقافة العلميّة.

٦. تساعد التّربية الجنسيّة الشّموليّة على الأخذ بعين الاعتبار القيم الاجتماعيّة المرتبطة بالحياة العائليّة وبالجنس، وتدعم تفهّم السلوك الجنسيّ المختلف، وتساهم في تقبّل كلّ إنسان مهما كان، وفي احترام حقّ الفرد في اختيار ميوله الجنسيّة.

على التّربية الجنسيّة أن تشجّع بناء موقف يرى أهمّيّة حاجات ومشاعر الآخرين في العلاقة الجنسيّة كأهميّتها لنا. وعلينا تطوير القدرة على تفهّم وإدراك الحاجات والمشاعر الجنسيّة (الواعية وغير الواعية) للأشخاص الآخرين، وذلك من خلال تطوير إدراكنا وفهمنا لمشاعرنا وحاجاتنا الذّاتيّة. دون هذا التّفهّم لا نستطيع أن نتوقع من الشّخص بناء علاقة مبنيّة على الاحترام والتّفهّم المتبادل.

أسس التّربية الجنسيّة الشّموليّة

يتعدّى فضول الأطفال في ميدان التّربية الجنسيّة الفضول النّظريّ إلى الفضول الحياتيّ. فهم يرغبون في الحقيقة في أن يتعلّموا عن وظائفهم الجنسيّة، وكذلك عن معنى الجنس ودوره في الحياة، وبالتّالي عن الموقف الّذي يترتّب عليهم أن يقفوه.

وللأهل والمعتنين بالطّفل (من مربّيات وأقرباء) الدّور الأساسيّ في هذه التّربية. فمن المتوقّع منهم أن يرعوا طفلهم ويكونوا على استعداد لتحمّل المسؤوليّات تجاه نموّه الجنسيّ. فلهم الدّور الحاسم في بلورة نظرة الطّفل عن جسمه وأعضائه ووظائفها، بما في ذلك الأعضاء الجنسيّة.

إنّ تحديد مواقفنا وقيمنا يمكّننا من تمريرها بشكل واعٍ ومخطّط وموجّه. وليس هذا الأمر بسهل – خاصّة لانعدام مصادر كافية بإمكان الأهل الاطلاع عليها لتحديد مواقفهم، أو لاستعمالها مع أطفالهم. ففي كثير من الأحيان تنقصنا حتّى اللغة المناسبة للحديث مع أطفالنا، كما إنّ للعديد من الأهل يفتقرون إلى فرص الحديث عن أعضاء الجسم الجنسيّة مثلاً، دون أن يرافق ذلك حرج أو خجل، ممّا يمنعهم من الحديث مع أطفالهم عن أعضاء أجسامهم، بخاصّة الجنسيّة منها.

ولكي نضمن أن تكون التّربية الجنسيّة شموليّة وحياتيّة في العائلة والمجتمع بمؤسّساته المختلفة علينا أن نسعى لأن تتوافر فيها جميع الشّروط التّالية:

١. مستمرّة

٢. تدريجيّة

٣. تتمّ في جوّ حواريّ

٤. الأهل والمربّون هم نماذج

٥. استخدام الكلمات الواضحة الصّحيحة واللهجة الطّبيعيّة

٦. تعتمد الصّحة في المعلومات

٧. شموليّة التّوجّه

- **التّربية الجنسيّة المستمرّة:**

التّربية الجنسيّة الشّموليّة هي عمليّة مستمرّة لا تتحدّد بزمن أو عُمر معيّن، فهي تبدأ في الطّفولة ومنذ اليوم الأوّل للولادة بل قبل ذلك. في مجتمعنا بخاصّة، يتوقّع الأهل من الطّفل المولود مشاعر وسلوكيّات وقدرات بناءً على كونه ذكرًا أو أنثى. فهو يولد في مجتمع بحضارة وتاريخ ومعتقدات بُنيت عبر التّاريخ، وهي تحدّد في كثير من الأحيان كيفيّة التّصرّف معه وتحدّد بالتّالي بعض جوانب شخصيّــته.

لذا فالأهل، من الأمّ والأب والإخوة والأخوات والجدّ والجدّة والعمّ والعمّة والخال والخالة، والمعتنون بالطّفل في الحضانة والرّوضة هم أوائل المربّين جنسيًّا، فتعامل هؤلاء مع طفلهم يساعده في بناء فكرة عن ذاته واتّجاهاته الجنسيّة. فالعلاقة الجسديّة الأولى للأمّ والأب بطفلهما، عبر المداعبة

والملاعبة تمّت بصلة إلى التّربية وهي أيضًا بداية للتّربية الجنسيّة.

لذلك، من الخطأ الاعتقاد بأنّ التّربية الجنسيّة العائليّة والمجتمعيّة هي عبارة عن معلومات لازمة، تعطى لكلّ فرد لمرّة واحدة وينتهي الأمر. وقد تبدو في خلفيّة هذا الاعتقاد رغبة عند الرّاشدة بالتّخلّص بأسرع ما يمكن من واجب مزعج لا بدّ من أدائه، وإزالة العبء عن كاهلها، فتتنفّس الصّعداء وتشعر بأنّها لم تعدّ مضطرّة إلى تكليف نفسها عبء التّفكير بالموضوع. وهذا بالطّبع يخالف طبيعة تعلّم الأطفال، فمن المعروف أنّه يجب تكرار المعلومات أمام الأطفال بأشكال متعدّدة، وعلى مستويات متفاوتة كي تترسّخ فعلاً في أذهانهم، ويتمّ لهم استيعابها وتذويتها تدريجيًّا.

لهذا فإنّ التّربية الجنسيّة هي عمليّة مستمرّة، وكما سبق أن ذكرنا فهي ليست مجرد معلومات تعطى للطّفل/ة – بل إنّها سلوكيّاتنا ومواقفنا في معتقداتنا الّتي تنعكس في تعاملنا الحياتيّ اليوميّ مع الأطفال.

حدّثتني صديقة لي عن تجربتها فقالت إنّها تعلم أهميّة أن تقوم بتزويد ابنتها بالمعلومات، لكنّها واجهت طوال الوقت صعوبة في التّحدّث معها بصراحة. وعندما بلغت البنت عمر ١١ سنة، سألتها سؤالاً عن جسمها. فقالت لها أمّها، وهي معلّمة ذات خبرة: "ما رأيك أن تجمعي صديقاتك وأنا سأحدّثكنّ عن الأمر؟" وهكذا فعلت، فقدّمت محاضرة للابنة وصديقاتها. إنّ التستّر وراء العلميّة (ربّما قامت بدورها كمعلمة، لكن هل قامت بدورها كأمّ؟) هو أيضًا وسيلة للتّهرّب من الاتّصال الدّافئ بين الأهل وأطفالهم، وهو اتّصال حيويّ في التّربية الجنسيّة، ناهيك عن التّربية الاجتماعيّة والعاطفيّة والنّفسيّة.

> ليست التّربية الجنسيّة محاضرة علميّة نقدّمها لأطفالنا لمرّة واحدة، تنتهي بانتهاء الوقت المحدّد لها، ونتنفّس بعدها الصّعداء راضين عن توفيرنا المعلومات لأطفالنا، بل هي نتاج لمسار طويل الأمد من التّداول والتّساؤل والمعايشة مبنيّ على أساس الصّراحة والمسؤوليّة.

التّربية الجنسيّة هي مسار مشاركة يتعلّم فيه الأطفال تقدير واحترام الفوارق بينهم، فيصبحون أكثر وعيًا للتّشابه. هي مواقف يوميّة نواجهها ونتفاعل معها ونعكس من خلالها آراءنا ومبادءنا. عندما نقول لطفل ذكر "لا تلعب بالدّمية"، فإنّنا نوجّهه ونبني رؤيته الجنسيّة الوظيفيّة (الجندريّة) عن ذاته الّتي ستكبر معه، لتصبح "تربية الأطفال والعناية بهم ليست من شأني بل من شؤون المرأة". وعندما نقول لطفلة حضرت لتوّها باكية: "لقد قلت لك من الأفضل أن تبقي إلى جانبي ولا تخرجي إلى الشّارع"، بينما نقول للطّفل: "مَنْ ضربك اضربه" فإنّنا بهذا نوفّر لكليهما وسائل التّعامل مع مشاكلهما في المستقبل. ونبثّ للطّفل رسالة المواجهة والعنف والعدوانيّة، وللطّفلة الخنوع والتّراجع

أمام العنف. (الجملتان في الحالتين تحتويان على رسائل خاطئة[٨]) وترافق هذه الرّسائل رسائل مشابهة على مرّ السّنوات عبر وسائل الإعلام ومؤسّسات التّربية الرّسميّة وغير الرّسميّة وكتب الأطفال وغيرها فتذوّت محتوياتها.

إنّنا بذلك نقلّص الإمكانيّات الّتي تسنح للفتاة أو الفتى ونحدّدها لهم مسبقًا لمجرّد كونهما ذكرًا وأنثى دون الالتفات إلى قدراتهما الفعليّة. إنّ كيفيّة التّعرّض لهذه القضايا تستلزم نقاشًا آخر، ولكنّها جزء من التّربية الجنسيّة الوظيفيّة الّتي تحدّد وظائف كلّ جنس في المستقبل أيضًا. وتكرّس التّقسيم الوظائفيّ الجنسويّ بين الأجناس في المجتمع.

- **الإجابة بالتّدريج:**

يصعب على الأطفال في جيل الطّفولة المبكرة إدراك مفهوم العلاقة الجنسيّة المعقّدة. ويرتبط تطوّر الإدراك والفهم بتطوّر القدرات العقليّة والنّضج، لهذا من المهمّ أن تلائم التّربية الجنسيّة اهتمام الأطفال وقدرتهم على الاستيعاب، أيْ علينا أن نقدّم المعلومات بشكل تدريجيّ ومتلائم مع مستوى نموّ الطّفل ممّا يسهم في تشجيع حبّ الاستطلاع لديه.

عندما يسأل الطّفل وبعد أن نستوضح حدود معرفته، نجيب على مستوى قدرته على الاستيعاب، مستعملين الحقائق. من المهمّ أن يكون كلامنا مبنيًّا على الحقائق، لكنّ ذلك لا يعني أن نُغرق الطّفل بشروحات عن جسم الإنسان للإجابة عن سؤاله الأوّل! علينا أن نعرض الحقائق بالتّدريج وفقًا لاهتمامه، والمطلوب أن ينتبه الأهل والمربّون لهذا الاهتمام ولتجارب الطّفل ، وفي معرض استعراضنا للأسئلة سنوضّح هذا المبدأ.

- **توفير في جوّ حواريّ:**

للمجتمع وللأطفال الّذين يعيشون حول الطّفل تأثير كبير أيضًا على تطوّر حبّ الاستطلاع لديه، لكن إذا وفّرنا الجوّ الحواريّ فسيلجأ الطّفل إلينا في كلّ الأحوال، وعندها نستطيع التّصحيح والتّدقيق والتّوجيه.

علينا أن نوفّر الجوّ المناسب للتّربية الجنسيّة لتأتي بكلّ ثمارها التّربويّة. إنّ الجوّ الحواريّ بين الوالدين، وبين الأشخاص المقرّبين للطّفلة (أقرباء ومربّيات) حيث تتوفّر لكلّ منهم إمكانيّة التّعبير عن آرائه ومشاعره ومواقفه بحريّة ويشعر بتقبّل وبتفهّم، هو شرط أساسيّ من شروط التّربية الجنسيّة الشّموليّة الجنسانيّة.

٨ للمزيد عن التّربية العائليّة راجع/ي كتاب د. هالة اسبانيولي صور عائليّة، إصدار المؤلّفة سنة ١٩٩٥.

من المهمّ أن نوفّر للطّفل مناخًا تربويًّا يسمح له بطرح الأسئلة وإبداء ملاحظاته عن الجنس بحرّيّة وصراحة. طفل اليوم بحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى عالم آمن وبيت يتوفّر فيه الحوار المفتوح بشكل مستمرّ لكي يستطيع بناء المفاهيم وتوضيحها لنفسه، وذلك من خلال إعادة الأسئلة وتلقّي الإجابة مرّة تلو الأخرى.

- **الأهل والمربّون هم قدوة لأطفالهم:**

إنّ الأهل هم المربّون الأوائل، وهم قدوة لأطفالهم ليس فقط في مواقفهم وفي آرائهم الّتي يعبّرون عنها كلاميًّا، بل أيضًا بسلوكيّاتهم مع أطفالهم وفي تصرّفاتهم فيما بينهم.

فعلاقة الأمّ والأب مع طفلهما تعكس مواقفهما تجاه جسده، وكيفيّة الملاعبة والمداعبة لجسم الطّفل توفّر له أنماطًا سلوكيّة. فعندما يقوم الأب بتنشيف جسم ابنه أو ابنته ويصل إلى الأعضاء الجنسيّة تتغيّر طريقة التّنشيف. وهو بذلك يوفّر رسالة للطّفل والطّفلة.

إنّ علاقة الأمّ والأب والمربّين بأطفالهم مهمّة جدًّا لتطوير رؤية ذاتيّة إيجابيّة عن أجسادهم، فالبيئة المتقبّلة والمحبّة تساهم في تطوير الهويّة الجنسانيّة للطّفلة. فإذا عبّرنا في علاقتنا بأطفالنا عن حبّنا وتقبّلنا لهم ولأجسادهم ولجميع أعضائهم بما فيها الأعضاء الجنسيّة، فإنّ رسالتنا تساهم في نموّ رؤية ذاتيّة إيجابيّة عند الطّفلة عن ذاتها وعن جسدها. أمّا إذا تميّزت هذه العلاقة بالرّفض والتّقزّز كلّما اقتربنا من أعضائها الجنسيّة مثلاً، فإنّها ستبني رؤية سلبيّة عن ذاتها وعن أعضائها الجنسيّة ممّا يؤدّي إلى مشاكل مستقبليّة.

علاقة الأمّ بالأب هي أيضًا نموذج للطّفل، فإن تربّى الطّفل في بيت لا يحترم فيه الأب الأمّ ويقوم بضربها وتوبيخها بشكل دائم، فإنّ هذا الأمر سيبلبل الطّفل وسيبني لديه مفهومًا مشوّهًا عن العلاقة بين الوالدين، لكن إذا تربّى في بيت يعبّر الأب والأمّ عن احترامهما لبعضهما البعض، ويظهران علاقة ودّيّة بينهما فلا يمتنعان عن التّعبير عن مودّتهما أمام الأطفال، فهما يوفّران بذلك نماذج إيجابيّة يستطيع الطّفل التّماثل معها.

في التّربية الجنسيّة كما في كلّ تربية، من المهمّ أيضًا وضع حدود. فعندما تعي الطّفلة جسمها ونراها تداعب أعضاءها الجنسيّة بشكل واعٍ نستطيع وضع حدود لمثل هذا السّلوك، كأن نذكرها بأنّ مداعبتها لأعضائها الجنسيّة هو سلوك خصوصيّ لا نقوم به أمام الجميع، فنوجّهها لاحترام جسدها وخصوصيّته (طبعًا مع طفل يفهم مثل هذه الحدود). نستطيع وضع حدود ترتبط بسلوكنا، يدركها الأطفال ويحترمونها أيضًا. فعندما يدخل الأمّ والأب إلى غرفة النّوم مثلاً ويرغبان في أن يكونا لوحدهما، يمكنهما إغلاق باب الغرفة ووضع حدّ لأطفالهما (عندما تكون غرفة النّوم مغلقة فنحن لا نرغب في أن تدخلوا إليها). ولكن علينا أيضًا احترام الأطفال وحدودهم عندما يضعونها

لنا، كاحترام طلب الطّفل عدم مرافقته إلى الحمام.

إنّ مثل هذه الحدود فرديّة وخاصّة لكلّ بيت أو حضانة أو روضة ويضعها الأهل والمربّون حسب ما يرونه مناسبًا. من المهمّ عدم الإفراط في الحدود والموانع والقوانين الّتي لا معنى لها ولا تلائم مستوى الأطفال، فلا نطلب من ابنة السّنة مثلاً عدم الدّخول إلى غرفة نومنا لأنّها لا تدرك مثل هذا الحدّ بعد.

إنّ الحدود متعلّقة أيضًا بآراء الأهل ومواقفهم، ومن المهمّ توضيحها لأنفسنا أوّلاً لكي لا تنشأ ازدواجيّة في المواقف وذلك حين نعبّر عن الشّيء ونقوم بنقيضه. مثل هذه الازدواجيّة تبلبل الطّفل وتفقده ثقته بأهله.

إنّ سلوكيّاتنا هي انعكاس لأفكارنا ومعتقداتنا ولا نستطيع فرض أمر على أحد. فإن كان الأب والأم متعوّدين على التّجوّل في البيت بملابس داخليّة مثلاً، يدرك الأطفال أنّ الأمر طبيعيّ ولا تحاط أجسام الأهل بسريّة وغموض. من المهمّ أن يكون الأهل على قناعة بكلّ نمط من أنماط سلوكهم أمام أطفالهم فهي تعكس قيمهم، بعض هذه السّلوكيّات نقوم بها في الغرف العامّة في البيت وبعضها في الغرف الخاصّة، ولا يوجد هنا حدود صحيحة أو خاطئة أو مقبولة على الجميع، فالأمر مرتبط بالعائلة وعاداتها الخاصّة. أحد المؤشّرات لصحّة السّلوك النّسبيّة للعائلة كونهم يستطيعون القيام به دون حرج وبطبيعيّة مطلقة: فهنالك آباء وأمّهات يمنعون أطفالهم من مرافقتهم إلى الحمام حتّى ولو طلب الطّفل ذلك، وهنالك من يسمحون بذلك من منطلق إدراكهم حاجة الأطفال لإشباع حبّ الاستطلاع في مرحلة عمريّة معيّنة، وعندما يدخلون معهم إلى الحمام يجيبون عن أسئلتهم بشكل طبيعيّ. إنّ الأمر مرتبط بمدى قدرة واستعداد الأهل على القيام بمثل هذه التّصرّفات.

من المهمّ هنا الإشارة إلى ضرورة حماية الأطفال من الاستغلال الجنسيّ. وبما أنّ الاستغلال الجنسيّ يحدث أيضًا داخل العائلة، فمن المهمّ الانتباه إلى عدم تعريض الأطفال لسلوكيّات جنسيّة تعتدي على خصوصيّتهم أو تُفرض عليهم (وهذا موضوع بحاجة إلى تعامل منفصل كونه سلوكًا عنيفًا لا مجال للإسهاب فيه هنا).

- **استعمال النّبرة العاديّة واللغة الطّبيعيّة والصّحيحة:**

ينبغي استعمال النّبرة العاديّة الّتي نستخدمها في أيّ حديث آخر، وذلك كي تشعر الطّفلة من خلال لهجتنا أنّ الجنس جزء من الحياة العاديّة. أمّا إنْ كان الأسلوب وعظيًّا فإنّه يقيم حاجزًا مصطنعًا بين الجنس والحياة، وبين الرّاشد والطّفل ممّا يُثير الخوف لدى الأخير.

علينا التّحدّث بطبيعيّة، ببساطة وصراحة ودون حرج. فقد نستعمل كلمة "حَمامة" أو كلمة "قضيب" أو غيرهما، ونحن نُشير بهذه الكلمات إلى العضو الجنسيّ الذّكريّ. ولكنّ سماعنا للكلمات سيُثير

لدينا مشاعر وردود فعل مختلفة باختلاف الكلمة وباختلافنا نحن، فمنّا من يشعر بالحرج عند سماع كلمة "حمامة"، ومنّا من يضحك للتّعبير عن حرجه، ومنّا من يحمرّ وجهه للتّعبير عن خجله.

وردود الفعل هذه ناتجة عن التّجارب المختلفة مع الكلمة ومضمونها الاجتماعيّ، لهذا فمن المهمّ أن نبدأ باستعمال كلمات صحيحة معبّرة عن الشّيء نفسه دون إضفاء معانٍ إضافيّة له، ودون أن نرفقه بالحرج أو الضّحك أو الهمس وما إليه من وسائل، إذ ينتبه الطّفل لردود فعل الأهل لدى استعمالهم أو سماعهم لكلمات معيّنة. فإذا ارتبكوا أو ضحكوا أو زجروا أو عاقبوا نتيجة لاستعمال كلمة معيّنة فإنّ ذلك يؤثّر عليه، فيمنعه من التّوجّه إليهم لإشباع حبّ استطلاعه ويوجهه إلى مصادر أخرى. لذلك، من المهمّ أن نستعمل اللغة الصّحيحة وأن نتدرّب عليها، قبل استعمالها. فإذا كان صعب عليكم مثلاً قول قضيب أو فرْج، تدرّبوا على ذلك أو اختاروا أسماء أخرى لها أدنى ما يمكن من المعنى السّلبيّ لديكم وفي بيئتكم، واستعملوها شرط أن تكون صحيحة. إنّ استعمالنا للكلمات الصّحيحة يقلّل من إمكانيّة إحراجنا أو تلعثمنا عندما نتحدّث، فتكون الرّسالة المقدّمة للطّفلة طبيعيّة كباقي المواضيع الّتي نتحدّث بها معها.

يجب ألاّ ننسى أنّ الأسئلة هي جزء واحد فقط من التّربية الجنسيّة. وإنّنا من خلال علاقتنا اليوميّة مع أطفالنا نرسل رسائل مهمّة للتّربية الجنسيّة. الكلام هو وسيلة اتّصال أخرى توضّح، تحدّد، وتفسّر أمورًا كنّا قد جرّبناها ولم نفهمها أو ندركها. لذا فالإجابة عن الأسئلة هي جزء من استمراريّة التّربية الجنسيّة، وحوار متواصل لا ينتهي. من المهمّ أن تأتي إجابتنا في كلّ مرّة منسجمة مع حاجة الطّفلة، دون أن نقحمها في مواضيع لم تطرحها على نفسها بعد. إنّ هذا الأمر ليس سهلاً، لذا وجب على كلّ واحد منّا، ابتداءً بالرّاشدين توضيح الأمر مع أنفسنا ومدى قدرتنا على التّربية الجنسيّة الشّموليّة، بما في ذلك استعمال المصطلحات الملائمة.

- **اعتماد الصّحّة في المعلومات:**

من المفضّل أن نزوّد الطّفل بالمعلومات بشكل يضمن أن تتلاءم مع احتياجاته ويوفّر له الإمكانيّة للحوار، للتّساؤل وللتّشاور. ومن أجل ذلك تراعى الدّقة في المعلومة وقدرة الطّفل على فهمها واستيعابها. إذا توافقت هذه المعلومات مع سلوكيّاتنا الّتي يتعلّم منها الطّفل، فإنّ ذلك سيزيد الثّقة لديه ويوفّر له الأمان الضّروريّ لنموّه، كما أنّه سيسمح له بالتّوجّه إلينا لإشباع حبّ استطلاعه الجنسيّ، ويجعلنا مرجعه الأوّل فيعود إلينا عند الحاجة ويساهم في بناء المرجعيّة المستقبليّة له.

إنّ صحّة المعلومات هي أمر أساسيّ في التّربية الجنسيّة، ولا نعني هنا أن نقدّم المعلومات الصّحيحة دفعة واحدة للأطفال، بل تدريجيّة تتوافق مع قدرات الطّفلة على الاستيعاب وتجيب عن اهتماماتها. إذا لم تتوفّر لدينا الإجابة الصّحيحة فمن المفضّل أن نشارك الطّفلة بذلك بدل أن نقدّم لها معلومات

كاذبة، بل إنّ مشاركتنا لها بعدم معرفتنا من شأنها أن توفّر فرصة لنا للبحث المشترك عن الإجابة الصّحيحة. وبالتّالي تقديم تجربة فعليّة للطّفلة حول مصادر المعرفة الموثوقة لدينا: كتاب علميّ أو موسوعة وما إليه من إمكانيّات.

- **شموليّة التّوجّه:**

شرحنا في الصّفحات السّابقة مفهوم شموليّة التّربية الجنسيّة. ومن المهمّ هنا التّأكيد على أهمّيّة تناول التّربية الجنسيّة جميع الأبعاد بما فيها البعد العاطفيّ للجنس، والعلاقة الوجدانيّة الّتي تجمع الشّريكين، ومن هنا ارتباط الجنس بالمحبّة والحنان والاحترام. وهذا يمكن أن ينعكس في العلاقة بين الأمّ والأب وعلاقة الطّفل بإخوته وبالعالم الخارجيّ.

ومن المهمّ ألاّ نغفل مقوّمًا أساسيًا من مقوّمات الخبرة الجنسيّة وهي اللذة الّتي تكتشفها الطّفلة في سنّ مبكرة جدًّا في حياتها مرتبطة بأعضائها الجنسيّة. فهي تنتظر اعترافًا من أهلها والأشخاص المعتنين من حولها بهذه المتعة وبشرعيّتها الأساسيّة، كي يتسنّى لها بلورة هويّتها الجنسانيّة.

فمن الممكن أن يظهر انتصاب لدى الطّفل أو أن تتمتّع لدى الطّفلة ملامستها لأعضائها الجنسيّة. إنّ ردّ فعلنا سيؤثّر على مواقفه/ا المستقبليّة. فإذا أخفنا الطّفل وقلنا له "عيب" أو منعناه، فإنّ ذلك سيشعره بالذّنب والخوف. إنّ مثل هذا السّلوك لن يمنعه من الاستمرار في محاولة إشباع حبّ استطلاعه الطّبيعيّ، بل وكما ذكرنا سابقًا فإنّه سيلجأ إلى آخرين لإشباع حبّ استطلاعه أو سيخفي الأمر عنكم. فأيّ طفل طبيعيّ سيستمرّ في محاولة التعرّف على أعضائه الجنسيّة بدعمكم وتفهمّكم أو بدونهما. فالمتعة هي دافع أساسيّ لإعادة التّجربة أمامنا أو في غيابنا.

وللتّلخيص، من المهمّ الاهتمام بالعوامل التّالية:

١. معايشة: النّموّ الجنسيّ جزء من الحياة ويجب أن نهتمّ به بشكل طبيعيّ ونعايشه كأيّ مجال من مجالات النّموّ. وكما لا نبخل على الطّفل فنردّد الأغنية عشرين مرّة قبل أن يبدأ هو بترديدها لوحده، فإنّنا هنا أيضًا سنحتاج إلى إعادة الإجابات مرّة تلو الأخرى دون ملل أو ضجر أو تذمّر، فهذا قانون التّعلّم لدى الطّفل، إنّه بحاجة إلى التّدرّب على ما تعلّمه بواسطة تكراره.

٢. لا للمحاضرات: علينا وبقدر المستطاع توفير الجوّ الحواريّ مع الامتناع عن إعطاء المحاضرات، إنّه مسار حديث وحوار فتحدّثوا وتحاوروا مع طفلتكم عندما تريد.

٣. مواقف: مواقفكم مهمّة تمامًا كإجابتكم، لذا يجب أن تكون هذه المواقف واضحة لكم لكي لا يقع تناقض بين ما تقولونه وما تعملونه من جهة، ولكي لا تعبّروا عن مواقف متناقضة أمام

الطّفل من جهة أخرى.

٤. التّدرج: عرض الحقائق بالتّدرج وفقًا لاهتمام الطّفلة وبتلاؤم مع قدرتها على الاستيعاب.

٥. التّوقيت: الأطفال محبّون للاستطلاع، لكن من المفضّل ألاّ نحاول دفعهم للسّؤال، بل الانتظار حتّى يطرحوا سؤالهم.

٦. الرّاحة: توفير الجوّ المريح للطّفلة يساهم في تعلّمها، فهي تتعلّم أكثر عندما تكون مرتاحةً.

٧. البيئة: تتطوّر التّربية الجنسيّة بأفضل صورها في بيئة محبّة متقبّلة.

٨. المثال الوالديّ: الأهل مثال للأطفال وهم يحذون حذوهم، يختزن الطّفل وبشكل غير واعٍ مواقف الأهل ومشاعرهم.

٩. الحرَج: حرج الأهل يمنع الطّفلة من توجيه الأسئلة أو يدفعها للبحث عن إجاباتها خارج البيت.

١. أنتم المصدر: يستطيع الأطفال الحصول على معلومات من مصادر مختلفة، لكن أفضل مصدر هو أنتم.

١١. حيوانات ونباتات: تستطيع الطّفلة التعلّم من مراقبة الحيوانات والنّباتات، لكنّ هذا لا يكفي لتتعلّم عن البشر، هي بحاجة إليكم.

الفصل الثّالث:

مراحل النّموّ والتّربية الجنسيّة في كلّ مرحلة

إنّ هويّتنا الجنسيّة تتطوّر على مراحل. فتخضع إلى قوانين النّموّ العامّة وترتبط بمجالات النّموّ المختلفة. إنّ النّموّ الجنسيّ هو مجال من مجالات النّموّ ومرتبط بها، فهو يؤثّر في أيضًا من المجالات الأخرى ويتأثر بها. فلا نستطيع فهم مراحل النّموّ الجنسيّ بمعزل عن النّموّ العقليّ والعاطفيّ والاجتماعيّ والجسديّ.

تتكوّن هويّتنا الجنسيّة بشكل عشوائيّ سَليقيّ إلى أن تصبح، بحكم النّموّ والتّعلّم الاجتماعيّ، موجّهةً وتابعة لقوانين اجتماعيّة خاصّة بكلّ مجتمع. أيْ أنّ النّموّ الجنسيّ يخضع لقوانين النّموّ العامّة فهو يتطوّر مثلاً من العامّ إلى الخاصّ. تحرّك الطّفلة جسمها بشكل عشوائيّ. فقط بفضل النّضج والنّموّ والتّدرّب (التّعلّم) يحرّك الطّفل يده أو رجله بشكل منفرد، ثمّ يحرّك إصبع يده بشكل موجّه. في مرحلة متقدّمة أكثر يستطيع الطّفل استعمال أجزاء الجسم المختلفة بوظائف محدّدة. كذلك النّموّ الجنسيّ، فهو يسير من العامّ إلى الخاصّ: تستكشف الطّفلة جسمها بشكل عشوائيّ ومن خلال التّجربة تتعرّف على أعضائها بما فيها الأعضاء الجنسيّة، وبمرور الوقت يدرك الطّفل الصّفات المميّزة لكلّ عضو، وفي مرحلة لاحقة فقط يستعملها بشكل وظيفيّ. يمرّ مسار النّموّ هذا في مراحل محدّدة.

تؤكّد الباحثة النّفسيّة س. أيساكز S.Isacs على:

١. إنّ الحياة الجنسيّة تبدأ من لحظة الولادة بل قبل ذلك، أي قبل الميلاد.

٢. عندما نتحدّث عن النّموّ الجنسيّ للطّفل لا نعني الجنس بمفهوم الاكتفاء الجنسيّ الّذي يرتبط

لدى العديدين بالأعضاء الجنسيّة والعلاقة الجنسيّة؛ بل إنّنا نتحدّث عن النّموّ الجنسيّ وتحديد هويّتنا (جنسانيّتنا) الجنسيّة. والنّموّ الجنسيّ للطّفل يمرّ بمراحل متعدّدة قبل أن يصبح موجّهًا ومرتبطًا بشكل أساسيّ بالأعضاء الجنسيّة.

٣. لا يأخذ التّمتّع الجنسيّ وإشباع الدّوافع الجنسيّة في السّنوات الأولى للحياة معنى علاقة حبّ أو علاقة جنسيّة. إنّه لا يزال مستقلاً ومرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بإشباع الرّغبات العامّة للطّفلة والظّروف العاطفيّة والنّفسيّة المتوفّرة حولها. كما أنّه ذو طابع عام غير مرتبط بالأعضاء الجنسيّة بشكل خاصّ، بل بالجسم بجميع أجزائه. وستمرّ فترة طويلة قبل أن يصبح متمركزًا حول الأعضاء الجنسيّة.

كان العالِم فرويد من أوائل الّذين حاولوا التّعرّض المراحل النّموّ الجنسيّ لدى الأطفال، وقد قسّم هذه المراحل إلى خمس أساسيّة (الفمّيّة، الشّرجيّة، القضيبيّة، الكمون، الأعضاء الجنسيّة). وعلى الرّغم من أنّ هذا التّقسيم قد لاقى العديد من انتقادات الباحثين، بل ثبت عدم صحّته، فلا يزال النّموّ الجنسيّ مرتبطًا لدى الكثيرين بتحليلات فرويد، لأنّه كان أوّل من فتح هذا المجال للبحث والنّقاش.

لاقت نظريّة فرويد الكثير من النّقد، خاصّة وأنّ غالبيّة فرضيّاته لم تصمد أمام البحث العلميّ. واليوم، يعتبر العديد من المختصين تحليلاته منقوصة، إذ أظهرت أبحاث عديدة عدم صحّتها، إلا أنها على الرّغم من ذلك لم تفقد أهمّيّتها. نوافق الباحث جروسمن الرّأي بوجود ثلاث فرضيّات أساسيّة مهمّة في نظريّة فرويد:

١. يستعمل فرويد مصطلح "اللبيدو"، أي المتعة، على أنّه طاقة جنسيّة ذاتيّة، والّتي نستطيع التعرّف عليها منذ اللحظة الأولى للولادة كقوّة دفع أساسيّة.

٢. إنّ السلوك الجنسيّ لا يوجه بشكل غريزيّ فقط، بل يحدث بتأثير التّربية والمجتمع.

٣. يمرّ النّموّ الجنسيّ بمراحل محدّدة وواضحة المعالم (Grossmann ١٩٧٤: ١٧٦).

سأحاول هنا ربط النّموّ الجنسيّ بمراحل النّموّ العامّ، والتّعرّض إلى الصّفات المتعلّقة بالنّموّ الجنسيّ، والمميّزة لكلّ فترة عمريّة، والّتي من شأنها تحديد هويّة الطّفل الجنسيّة خلال مسار النّموّ. إنّ وتيرة نموّ الطّفل جنسيًا تختلف من طفل لآخر، فوتيرة النّموّ فرديّة، غير أنّها تمرّ بمراحل عينيّة متلاحقة ومتتابعة، وكلّ مرحلة تحتوي سابقتها وتبني عليها. يمكنكم كأهل ومربّين متابعتها من خلال تعاملكم اليوميّ مع أطفالكم. يركّز هذا الكتاب على مراحل النّموّ الجنسيّ في الطّفولة المبكرة.

المرحلة الأولى

السّنة الأولى من عمر الطّفلة/ الطفل

تتميّز المرحلة الأولى من النّموّ بأنّ الطّفلة تتعرّف على العالم من حولها بواسطة حواسها الخمس، وكذلك تتعرّف على ذاتها من خلال تجاربها الحسيّة. فجسم الطّفل هو جزء من البيئة حوله، والّتي يحاول التّعرّف عليها مدفوعًا بحبّ الاستطلاع الطّبيعيّ، وبالمتعة الّتي توفّرها له تجاربه الحسيّة مع العالم المحيط به بما في ذلك جسمه.

تستجيب الطّفلة في البداية لكلّ ما يؤدّي إلى راحتها الجسديّة، ومن خلال علاقتها مع العالم المحيط بها تُكوّن أوّل فكرة عن جسمها. وهذه هي بداية تبلور الهويّة الجنسيّة، وتعاملنا معها هو بداية للتّربية الجنسيّة، كما أنّها بداية للتّربية العاطفيّة والاجتماعيّة، وبداية لتطوّر جميع مجالات النّموّ. فمجالات النّموّ المختلفة مرتبطة ببعضها البعض ارتباطًا وثيقًا إلى حدّ يصعب الفصل بينها، وما الفصل هنا إلاّ للتّوضيح، إذًا علينا أن نتذكّر أنّنا لا نستطيع أن نتحدّث عن النّموّ الجنسيّ بمعزل عن النّموّ العاطفيّ والعقليّ، الذّهنيّ والاجتماعيّ فجميعها مرتبطة ببعضها البعض.

إن كيفيّة إشباع الحاجات الأساسيّة للطّفل تؤثّر على نموّه في جميع المجالات، بما فيها النّموّ الجنسيّ. فطريقة إطعام الطّفلة من شأنها أن تشبع جوعها، لكنّها إنْ تمّت بشكل مثابر وعلى يد شخص يهتمّ بالطّفل، ويوفّر له الحنان والعطف فمن شأنها أن توفّر له الأمان وتبني الثّقة الأساسيّة لديه، وتشعره أنّه محبوب ممّن حوله، وبالتّالي تساهم في تنمية قدراته العاطفيّة. هذه العلاقة الدّافئة توفّر للطفلة معلومات أوّليّة عن جسمها فهي تساهم في نموّها الجنسيّ، إنّها تعلم أنّها إذا عبّرت عن ذاتها فهنالك من يهتمّ بها ويسمعها، وهذا الشّعور بالأمان سيدفعها إلى التّجربة، وتجاربها ستغنيها وتساهم في نموّها العقليّ أيضًا،... وهذا سيساهم في تنمية مجالات النّموّ الأخرى.

يعدّ الحصول على الطعام والعناية اليوميّة باحتياجات الطّفلة الأساسيّة المصدر الأوّل للعلاقة مع العالم الخارجيّ. وهذه العلاقة توفّر متعة خاصّة، فقربها من صدر الأم للرّضاعة، والعلاقة الجسديّة بينها وبين المعتنين بها، الدّفء الجسديّ الّذي تحسّه، الرّائحة الّتي تشمّها، جميعها مصادر للمتعة.

فطريقة ملامسة الأم أو الأب لطفلهما وطريقة التّغيير وحمّامه وتنشيفه، حمله بين أيديهما، تقريبه من جسمها أو جسمه، كلّ هذا يساعده على الشّعور بالحبّ والحنان ويوفّر له تجارب مع ذاته ومع الآخرين. وهي بداية لبناء فكرة عن ذاته وعن هويّته بشكل عامّ، بما في ذلك هويّته الجنسانيّة. وإذا اقترنت هذه العناية بالمثابرة والوضوح والحنان فإنّها تساهم في بناء فكرة إيجابيّة عن ذاته وعن جسمه. ومع مرور الوقت سيدرك أنّه مقبول ومرغوب فيه كما هو، وسيساهم في تنميته العامّة.

في النّصف الثّاني من العامّ الأوّل، يتزايد اهتمام الرّضيعة بجسمها نتيجة لحبّ استطلاعها، كما أنّ حواسها تكون قد تطوّرت أكثر فتبدأ بالتّعرّف على جسمها من خلال يديها. وكلّما اكتشفت عضوًا من أعضاء جسمها فإنّها تداعبه، تتحسسّه، وتتلاعب به محاولةً التّعرّف عليه بواسطة حواسّها الخمس الّتي تعدّ محطّات الاستقبال للمثيرات المختلفة حولها، وصِلتها الأساسيّة مع العالم. فتكتشف في البداية يديها وأصابعها ورجليها ولسانها، وتكتشف أيضًا أعضاءها الجنسيّة وتداعبها وتتلاعب بها. وكما هو الحال لدى كلّ اكتشاف يُعيد الطّفل ويكرّر الحركات الجديدة. فمن منّا لم يراقب ويضحك لرؤية طفل اكتشف لتوّه لسانه وكيف يُعيد ويكرّر الحركة نفسها إلى أن ينتقل إلى اكتشافات أخرى؟ وهكذا ومن خلال تكراره للحركات يكتشف أنّ عضوه الجنسيّ (القضيب أو البظر عند الطّفلة) يجلب له المتعة فيُكرر هذه السّلوكيّات ويتمتّع بها.

يحتاج الطّفل في هذه المرحلة إلى صلة دافئة مع جسمه، فهو بحاجة إلى القبلات، إلى الملاطفة، إلى الحمل على اليدين. فكما قال ف. ليبُوييْر F.Leboyer ١٩٨٤: "يجب علينا إطعام الأطفال بالحبّ والدّفء والنّعومة لأنّهم يحتاجون إليها كالحليب". إن حمل الطّفل، وتمسيجه، وتقبيله إلخ،.. كلها غذاء مهمّ للطّفل لا يقلّ أهميّة عن الفيتامينات والبروتينات، إنّه غذاء الحبّ وإذا فقد الطّفل هذا الغذاء فإنّ نتائجه تكون أقسى من نتائج النّقص في التّغذية. أثبت R.Spitz[٩] في أبحاثه حول نتائج الحرمان العاطفيّ في السّنة الأولى من عمر الطّفلة أنّ النّموّ العامّ للأطفال المحرومين عاطفيًّا متأخر كما أنّ قدرتهم على إنشاء علاقات اجتماعيّة كانت محدودة؛ فيما امتلك الأطفال الّذين تربّوا في حبّ وعناية القدرة على الثّقة بمن حولهم والثّقة بقدراتهم الذّاتيّة. وكما هو معروف فإنّ الثقة بالذّات وبالآخرين هي أساس للنّموّ الجنسيّ الصّحّيّ ولبلورة جنسانيّة.

تكتشف الطّفلة من خلال مداعبتها لجسمها، بما فيها أعضاؤها الجنسيّة، ومن خلال علاقتها بالآخرين، الكثير من الأمور عن جسمها وأعضائها بما فيها الجنسيّة. ومثل هذه الاكتشافات يجب أن تفرّحنا مثلما نفرح لابننا أو ابنتنا عندما يكتشف يديه وعندما يقرّب قدمه إلى فمه، وعندما يحاول أن يقرّب يديه الواحدة إلى الأخرى فيصفّق. إنّ هذه السّلوكيّات جميعها تعبّر عن نموّ الطّفل، تمامًا كما يعبّر اللّعب بالقضيب أو البظر أو الفرج عن نموّ الطّفل. أي أنّ أيّ اكتشاف يكتشفه الطّفل عن ذاته وعن بيئته هو دلالة على تطوّره، ودلالة على صحّته النّفسيّة.

> إنّ طفلاً لا يحرّك يديه لاكتشاف جسمه، ولا يكتشف يديه، ورجليه، وأصابعه، وقضيبه (أو فرجها) يعاني من نموّ غير سليم.

في أثناء السنة الأولى تكتشف الطّفلة اكتشافات مُثيرة عن جسمها وأعضائها. ومن المهمّ أن تتعرّف

٩ http://emedicine.medscape.com/article/915447-overview

ابتداءً من هذه المرحلة على الأسماء الصّحيحة لأعضائها. إنّ اللغة السّليمة هي إحدى جوانب التّربية الجنسيّة. فإذا استعملنا الكلمات بشكل صحيح فسوف تستعملها هي بشكل صحيح عندما تحتاجها. وستسألنا بكلمات واضحة وسهلة أكثر، فنحن نتكلّم لغة واحدة. كما أنّها عندما تتعلّمها من البداية بشكل صحيح، فلن تحتاج لإعادة تعلّمها فيما بعد.

إنّ استعمال الكلمات الصّحيحة يحرّرنا من الخجل المقترن لدينا ببعض التّسميات المتداولة في الشّارع كجزء من قاموس الكلمات البذيئة، كما وأنّ مثل هذا الاستعمال سيعطي الطّفل رسالة إيجابيّة عن جسمه وعن أعضائه المختلفة.

المرحلة الثّانية

السّنة الثّانية من العمر

إنّ ما يميّز هذه المرحلة هو تطوّر في استقلاليّة الطّفل، وتعرّفه على أعضائه وباقي أجزاء جسمه. فيتعرّف على شرجه ويحاول السّيطرة على برازه وتبوّله، وذلك لجلب له المتعة. كما أنّه يبقى مهتمًّا بأعضائه الجنسيّة: يتحسسّها ويتعرّف عليها ويلقى متعة من هذه اللعبة.

نبدأ في نهاية السّنة الثّانية عادة بالاهتمام بالتّربية للمحافظة على النّظافة الشّخصيّة، فيقترن ذلك غالبًا بصراع قوى بين الطّفلة والأهل أو المربّين، وذلك لرغبتهم في أن تحافظ الطّفلة على نظافتها الشّخصيّة فهي تتكلّم، تمشي، تجلس.. فلماذا لا تقول "أريد أن أذهب إلى الحمّام"؟ صحيح أنّ غالبيّة الأطفال في هذا العمر ينضجون من ناحية جسديّة للمحافظة على النّظافة الشّخصيّة، ولكنّهم في الوقت نفسه قد يبدؤون بإدراك قوّتهم في التّحكّم في الأغراض الّتي تحيطهم، أي يبدأ عندهم الشعور بالاستقلاليّة. ولو انتظرناهم فترة لينضجوا من ناحية نفسيّة، فإنّهم سيبادرون بأنفسهم إلى المحافظة على نظافتهم الشّخصيّة، وعندها سيقترن هذا الأمر بالمتعة لدى الطّفل وأهله. أضف إلى ذلك أن الطّفل سيشعر باستقلاليّــته وسنحميه من الشّعور بالخجل والفشل في حالة فشله مرّات عديدة في السّيطرة على نفسه، وما يرافق ذلك من شعوره بالنّقص بناءً على ردود فعلنا. الحقيقة أنّ أكثر كلمة متداولة في وضع الحدود في هذه المرحلة هي كلمة "عيب". إنّ للإفراط في وضع الحدود في هذه المرحلة نتائج سلبيّة مهمّة للتّربية بشكل عامّ، وللتّربية الجنسيّة بشكل خاصّ. فبالإضافة إلى منع الطّفل من تطوير استقلاليّته وتحديد رغبته فإنّها بداية تكريس "التّابو" على المنطقة الشّرجيّة والأعضاء الجنسيّة.

يتكرّس "التّابو" في هذه المرحلة بعد ما بدأ تكوينه في المرحلة الأولى، حيث قام المهتمّ بالطّفلة

بالتّعامل بشكل مختلف/ة مع الأعضاء الجنسيّة. فعندما ننشّف جسم الطّفلة بعد الحمام وعند وصولنا إلى أعضائها الجنسيّة نغيّر طريقة التّنشيف، كما أنّنا نسعى في هذه المرحلة لإبقاء الأعضاء الجنسيّة مغطّاة كلّ الوقت.

يمرّ الطّفل في هذه المرحلة بالتّجربة الأولى في ما يعني أن يكون طفلاً/ ذكرًا أو طفلة/أنثى. ربّما يبدأ في هذه المرحلة بالاهتمام بالفوارق بين الجنسين، والسّؤال الأوّل: ما هذا؟ (مُشيرًا إلى عضوه الجنسيّ). مثل هذا السّؤال سيتحدّد أكثر في مراحل النّموّ المقبلة، لهذا سنتطرّق إليه فيما بعد. ولكن من المهمّ أن نذكر هنا أيضًا أنّ مراحل النّموّ الجنسيّ مثلها مثل باقي المراحل، تمرّ بوتيرة مختلفة من طفل إلى آخر. فربّما يبدأ طفل ابن سنة وثمانية أشهر بالسّؤال، في حين لا يتساءل ابن سنتين وشهرين بعد. الفوارق الفرديّة قائمة ويجب أن نتعامل مع كلّ طفلة حسب وتيرة تطورها ومستوى نموّها. وما السّنوات إلا حدود تساعدنا على الفهم، لكنّها حدود مرنة. فالنّموّ عمليّة مستمرّة تمرّ بمراحل مختلفة محدّدة ومتدرّجة، ولكنّها فرديّة بوتيرتها.

المرحلة الثّالثة

من ٣-٦ سنوات

يتمركز تفكير الطّفل في هذا العمر حول ذاته، فهو أنويّ مشغول بهويّته الذّاتيّة. وكلّما كبُرَ زاد إدراكه للآخرين، فيدرك خصوصيّة الأمّهات والآباء والبنين والبنات وراشدين آخرين. إنه يبدأ في إدراك حاجات وحقوق الآخرين أيضًا، وأنّه في بعض الأحيان يجب عليه إرجاء إشباع حاجاته من أجل ملاءمة حاجاته لهم. وفي هذا المسار، مع ما يحتوي من صراعات، يدرك الطّفل أنّه لا يستطيع إشباع حاجاته الآنيّة، ويتعلّم أنّ للآخرين شخصيّات مستقلّة. فالوظيفة الأساسيّة للطّفل في هذه المرحلة هي بناء هويّة ذاتيّة.

في هذه المرحلة يتبلور توجهه الأساسيّ، الذي له أهمّيّة وتأثير على التّعلّم والسّلوك المستقبليّ.

يتحدّد أساس التّطوّر الشّخصيّ في المراحل القادمة بمدى إدراك الطّفلة لحساسيّة الآخرين تجاهها، وهذا يتعلّق بحساسيّتـــها هي لذاتها وتقييمها لذاتها وبمواقفها تجاه جسمها ومدى شعورها بالتّقدير له.

يأخذ التمتّع بواسطة الأعضاء الجنسيّة اهتمامًا أكبر في هذه المرحلة، فنرى ظاهرة مداعبة الأعضاء الجنسيّة الطّفوليّة تتواتر بشكل دوريّ ودائم. إنّ إشباع الرّغبة لدى الأطفال غير مقتصرة بالضّرورة على مداعبة الأعضاء الجنسيّة، بل يمكن أن تتمّ بواسطة ملاطفة أي منطقة من جسمه، لهذا فقد

وسع المصطلح إلى "التّلاعب بالأعضاء الجنسيّة أو أيّ منطقة من مناطق الجسم الّتي تحلّ محلّها". كما يظهر في هذه المرحلة التّعبير النّفسيّ والاجتماعيّ للحياة الجنسيّة، فيختار الطّفل أشياء من بيئته لتلازمه، كما يبدأ بالاهتمام بالأشخاص من حوله، ويختار شخصًا مفضّلاً عنده من الجنس الآخر (عادة ما تكون الأمّ)، وتبدو مظاهر كالغيرة. وجميع هذه الظواهر هي ظواهر جنسيّة مميّزة لهذه المرحلة.

تتميّز الطّفلة بحبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لجسمها وللفوارق بين جسمها وأجسام الآخرين، أطفالاً وراشدين. ويرتبط الاهتمام وحبّ الاستطلاع أيضًا بجوانب اجتماعيّة وثقافيّة، بالإضافة إلى الجوانب البيولوجيّة، وبالفوارق بين الوظائف الجنسيّة. إنّ هذه المرحلة هي الأساس في تحديد جنسانيّتها. لذا فمن المهمّ أن يقابل حبّ الاستطلاع باهتمام مِنَ البيئة وأن يحصل الطّفل على مؤازرة لهويّته الجنسيّة.

غالبيّة الأطفال في هذا العمر يميّزون جنسهم، ويعلمون أنّهم سيكبرون، لهذا فإنّهم يبحثون عن "نماذج" مريحة لتعلّم وظائفهم المستقبليّة. وهذه النّماذج هي الأهل والأطفال الآخرون، فيعبّرون عن ذلك بأسئلتهم وبألعابهم حين يلعبون دور الأمّ أو الأب مظهرين اهتمامهم بالشّخصيّة الواقعيّة.

إنّ إحدى الصّفات المميّزة للطّفل في هذا العمر هي قدرته على التخيّل المبدع، في حين لم يطوّر بعد قدرته على فحص الواقع والتّعامل معه. إنّ هذه القدرة من شأنها أن تساعده في التّغلّب على مخاوفه وقلقه، فيتوجه إلى عالم اللعب والخيال. فاللعب هو وسيلته لحماية نفسه. ومواجهة الصّراعات وحلّها بواسطة اللعب يوفّران للطّفل إمكانيّة السّيطرة على سلوكه في الحياة العمليّة. أمّا الخيال، وعلى الرّغم من أهمّيته في هذه المرحلة، فمن شأنه أن يخيف الطّفل في بعض الأحيان، لهذا من المهمّ تقديم معلومات دقيقة للطّفل حول جسمه ووظائفه، خاصّة عندما يتوجّه إلينا ويشاركنا مخاوفه وتخيّلاته، عندها من المهمّ أن نصحّح ونوفّر المعلومات الملائمة لمستوى نموّه.

كثيرون من الأطفال أبناء الثّلاث إلى الخمس سنوات يرغبون "بالزّواج" من أمّهم أو أبيهم (عادةً الجنس المختلف عنهم). من المفضّل عدم الاستهزاء بهذه المشاعر. فعندما يقول الطّفل لأمّه "أريد أن أتزوّجك" فكلّ ما يبتغيه هو التّعبير عن حبّه لها، لهذا من المفضّل أن تؤكّد الأم للطّفل أنّها تحبّه كما يحبّها وتزيد: "أنا متزوّجة من أبيك، عندما تكبر ستجد امرأة بعمرك تتزوّجها".

من المفضّل أن يتمّ الاهتمام بالطّفل والطّفلة في هذا الجيل من قبل الوالدين معًا، حتّى إذا كان الطّفل يميل إلى أحدهما أكثر، فيجب أن يحصل على اهتمام ورعاية ومداعبة مِنَ الاثنين.

إنّ هذه الرّعاية هي أيضًا فرصة لا تعوّض لتحصل الطّفلة على درس مهمّ في التّربية الجنسيّة، وهو أنّ التّعامل مع أجسام الآخرين يجب أن يتمّ باحترام وبنعومة، وبعد أخذ موافقتهم على ذلك،

وليس عنوة وبعنف. هذه أسس تَعامل تكتسبها الطّفلة من خلال تعاملكم معها.

يحاول العديد منّا مثلاً تقبيل الطّفل عنوة، كتعبير عن محبّتهم له ورغبتهم في مداعبته أو إغاظته. توحي مثل هذه المداعبة للطّفل أنّه عاجز عن مواجهة من هم أكبر وأقوى منه، وأنّه لا يستطيع أن يرفض مثل هذه المداعبة. إذا كنّا نحبّ أطفالنا بالفعل فيجب أن نحترم رغباتهم، وأن نعوّدهم على حقّ ملكيّة أجسامهم وإعطاء القبلة أو منعها لمن يرغبون. إنّ هذه الرّسائل مهمّة لوقاية الأطفال من استغلالهم ممّن هم أقوى منهم (وهذا موضوع واسع لا مجال للخوض بتفاصيله هنا).

الأهمّيّة الجنسيّة للأمّ

في هذه المرحلة أيضًا من سنّ الرّابعة حتّى التّاسعة تقريبًا يبدأ اهتمام الطّفلة بوظيفة الأمّ البيولوجيّة، وتكثر أسئلتها عن الحمل والولادة. يثير هذا الموضوع اهتمام الطّفل حتّى سنّ التّاسعة ممّا يتيح للوالدين التّدرّج في الحديث مع الطّفل وإجابته وفقًا لرغبته وقدرته على الفهم.

أمّا الاهتمام بدور الأب فيأتي في مرحلة لاحقة (من ٨–١١ سنة) حيث يحظى دور الأب في العمليّة الجنسيّة والتّناسل باهتمام الأطفال.

المرحلة الرّابعة

٧-١٢ سنوات

تزداد اهتمامات الطّفلة بالعالم من حولها، فتحصل على استقلاليّة نسبيّة عن أهلها. يعتقد البعض بأنّ الطّفل يدخل في فترة كمون جنسيّ، لكنّ الأبحاث تدلّنا على أنّ الاهتمامات الجنسيّة خلال هذه المرحلة قائمة وتظهر بشكل حادّ في مرحلة المراهقة.

فقد أظهر ج. بِتْنَر (G.Bittner ١٩٧١) أنّه لا يوجد كمون، بل إنّ تجارب الأطفال الجنسيّة في هذه المرحلة تقع خارج العائلة، لهذا فاهتماماتهم الجنسيّة تنعكس من خلال لعبهم وأحاديثهم بين بعضهم البعض.

إنّ ردود الفعل غير الصّحيحة على سلوكيّات الأطفال هي الّتي تجعل هذه السّلوكيّات مصحوبة بالخوف والخجل. وقد يتعلّم الطّفل مع الوقت أن يخفيها عن أهله لئلاّ يتلقّى العقاب. هذا ما دفع البعض إلى الاعتقاد بأنّ النّموّ الجنسيّ يدخل إلى مرحلة كمون أو يختفي لفترة معيّنة. ونحن نعلم اليوم من الأبحاث التي تراقب نموّ الأطفال أنّ النّموّ الجنسيّ هو عمليّة مستمرّة، فالكمون هو نسبيّ قياسياً بالمراحل السّابقة واللاحقة.

الظّواهر الجنسيّة الأساسيّة:

- **حبّ الاستطلاع الجنسيّ**

حبّ الاستطلاع هو أساس التّعلّم لدى الأطفال، ولا يرافق المرحلة هذه أو تلك، بل إنّه يرافق مراحل النّموّ الجنسيّ المختلفة. وينعكس حبّ الاستطلاع في عدّة سلوكيّات:

١. محاولات الطّفلة التّعرّف على جسمها.

٢. مقارنة ما تعلّمه الطّفل عن جسمه بما يراه لدى الآخرين، أطفالاً وراشدين.

٣. تتوجّه الطّفلة لمن حولها بالأسئلة.

توفّر البيئة الصّحّيّة الإمكانيّات المختلفة لإشباع حبّ الاستطلاع لدى الأطفال، وذلك بالإجابة عن تساؤلاتهم وفتح المجال أمامهم للتّعرّف على أجسامهم وأجسام الآخرين، فهي من الأمور الأساسيّة للنّموّ السّليم للطّفل. ويعدّ الحمّام وتغيير الملابس والاستحمام أوقات طبيعيّة للمشاهدة والتّعلّم.

- **استكشاف جسمها وأجسام الآخرين**

حين يبدأ الأطفال بالتّعرّف على أجسامهم وعندما يدركون الفوارق بين الجنسين، نراهم أوّلاً يرغبون في الاستكشاف والنّظر إلى أجسام الآخرين. فيبدون رغبة في مرافقة أخيهم أو أختهم الأكبر منهم إلى الحمّام، يراقبون ويكتشفون الفوارق بين الأمّ والأب، الأخت والأخ. لدى اكتشافهم هذه الفوارق نسمعهم يوجّهون أوّل سؤال بهذا الصّدد، أو يعبّرون عن اكتشافهم بقولهم "إي إي، ما عندِك قضيب، حمامة حموشة" أو "شو هادا؟" إلخ،.. من الأسئلة.

إذا وفّرنا لهم الفرصة للمراقبة، وسمحنا لهم بمرافقتنا إلى الحمّام أو مرافقة الإخوة إلى الحمّام، فإنّ هذا سيشبع حبّ الاستطلاع لديهم بشكل طبيعيّ، وسوف يساهم في إدراكهم الفوارق، خاصّة إذا استطعنا التّعامل مع الأمر بشكل طبيعيّ وكجزء من الحياة اليوميّة.

إذا طلب طفل في عمر السّنتين مثلاً الدّخول إلى الحمّام مع الأمّ أو الأب أو الأخ أو الأخت، فلا يوجد أيّ مانع من أن نستجيب له، شرط أن نكون واعين بأن كلّ ما في الأمر أن الطّفل وبعد اكتشافه لبعض المعلومات عن ذاته، يرغب في التّأكّد من هذه الاكتشافات ومقارنتها مع الآخرين. إنّ رغبته في رؤية الآخرين هي بهدف تحديد المعلومات عن ذاته، أي بهدف التّعرّف على الذّات، ولا يوجد لديه أيّ مشاريع أو أفكار أخرى. فهو متمركز حول ذاته وأسئلته تهدف إلى التعرّف على ذاته. وإذا عبرتم هذه التجّربة فإنّكم سترون أنّ الطّفل سيسأل "ما هذا؟" أو "لماذا لا يوجد لديك قضيب؟" أو "لماذا صدرك كبير؟" وما شابه من أسئلة تعبّر عن رغبة الطّفل في المعرفة.

من المفضّل ألاّ نمنع الطّفلة من مراقبة الفوارق بين أمّه وأبيه، بين أخته وأخيه وأن نُجيب عن جميع الأسئلة إلينا، شرط أن تكون الإجابة صحيحة ومتلائمة مع نموّ الطّفلة، وأن نكون نحن على استعداد لمثل هذه المقارنة. قولي لها مثلاً "إنّ لجميع الآباء والأبناء الذّكور قضيبًا بينما لجميع الأمّهات والبنات فرجًا"، أو "إنّ الأعضاء الجنسيّة للأب موجودة في الخارج بينما الأعضاء الجنسيّة للأمّ في الدّاخل". وفي مرحلة لاحقة سيسأل لماذا؟ فيمكننا أن نقول "إنّ هذا الأمر لكي تستطيع الأمّ ولادة الأطفال"،.. سنتطرّق إلى الأسئلة الأخرى لاحقًا.

- **المداعبة الطّفوليّة للأعضاء الجنسيّة:**

بعد أن اكتشف الطّفل أو الطّفلة بالصّدفة أعضاءه الجنسيّة، واكتشف المتعة الّتي تجلبها له، وذلك من خلال تجاربه العشوائيّة في البداية للتّعرّف على جسمه وأجزائه المختلفة، تتحوّل بعد التّكرار والإعادة إلى تجارب موجّهة فهو يُعيد حركاته، خاصّة تلك الّتي تجلب له متعة، فيتمتّع الطّفل بفرْك أعضائه الجنسيّة ويلبي رغبته بشكل مستقلّ.

مداعبة الأعضاء الجنسيّة ظاهرة طبيعيّة تظهر لدى جميع أطفال العالم، ذكورًا وإناثًا، مهما اختلفت بيئتهم الثّقافيّة. إنّه سلوك مرافق لمراحل النّموّ الجنسيّ، وإذا لم يتدخّل أحد ويخلّ بهذا النّموّ فإنّ الطّفل سينتقل إلى مراحل النّموّ القادمة دون مشاكل.

إن لعب الطّفلة بأعضائها الجنسيّة هو سلوك طبيعيّ وصحيح ومهمّ للتّعرّف على جسمها، فحبّذا لو امتنعنا عن زجرها أو إبعاد يدها عن أعضائها الجنسيّة. لماذا نمنع الطّفلة من تجميع تجارب أولى غير مضرّة وضروريّة لنموّها؟

عندما يصل الطّفل إلى عمر ٣-٤ سنوات يمكنكم وضع حدود له، كمثل أن نقول له: "جسمك وأعضاء جسمك هم لك فإذا أردت أن تتعرّف عليها فمن المفضّل أن تدخل إلى غرفتك" أو "هذا أمر شخصيّ لا نقوم به أمام الآخرين". ترافَق هذه التّجربة عادة بمتعة، ومن المهمّ أن نوفّر شرعيّة لمثل هذه المتعة عندما نقدّم الحدود فيمكننا القول "أنا أعلم أنّك تتمتّع في التّعرّف على جسمك، لكنّ هذا الأمر شخصيّ لا نقوم به أمام الآخرين"، "يمكنك الذّهاب إلى غرفتك إنْ أردت".

إنّ ردود فعل الأهل على سلوكيّات الطّفلة تحدّد رؤيتها لذاتها ولهذه السّلوكيّات ولأهلها من حولها، فكثير من الأهل يعتقدون مثلاً بأنّ مداعبة الأعضاء الجنسيّة ظاهرة غير مرغوب فيها، وهكذا يمرّ الطّفل في مرحلة مبكرة جدًّا بتجربة غير مريحة مع جزء من جسمه عندما يسرع الأهل لتحفيضه (وضع الحفاض بامبرز؟) أو لضربه على يده، وعندما يصدرون أصواتًا تعبّر عن عدم الرّضا عن ذلك، محاولين منعه عن القيام بمثل هذه السّلوكيّات. وهنالك بعض الأهالي الّذين يقومون بملاعبة الطّفل، خاصّة إنْ كان ذكرًا والغناء له ولأعضائه الجنسيّة، لكن عندما يحاول الطّفل أن يتعرّف

على هذه الأعضاء بنفسه فإنّهم يمنعونه ويضربونه على يده.

إنّ الرسالة الّتي تلقّاها الطّفل هي أنّ هذا الجزء من جسمه مختلف عن باقي الأجزاء. ومع الوقت تقترن ملامسة أعضائه الجنسيّة بالخوف، ويشعر بالذّنب كلّما لامس أعضاءه الجنسيّة. من شأن مثل هذا الشّعور أن يؤدّي إلى مخاوف لا مبرّر لها. وإذا استدامت فإنها تؤدّي إلى مشاكل نفسوجنسيّة متنوّعة. ويزداد الشّعور بالبلبلة إذا كانت هناك ازدواجيّة في المواقف، أي أنْ يمنعوه من ملامسة قضيبه، مثلاً، فيما يسمحون لأنفسهم بذلك.

في العديد من الأحيان، يرتبط مثل هذا التّصرّف عند الأهل بالتّجارب الشّخصيّة، أو بالأفكار المسبقة أو نتيجة لخوفهم واعتقاداتهم الخاطئة بأن من شأن الطّفلة أن تتعوّد على ملامسة أعضائها الجنسيّة وبأنّ هذا يسبّب الأمراض.

وعلى الرّغم من أنّ غالبيّة الأهل يعلمون اليوم أنّ مداعبة الطّفل/ة لأعضائه/ا الجنسيّة لا يؤدّي إلى جنون أو إلى ظهور حبوب على الوجه وغيرها من المعتقدات الخاطئة الّتي كانت سائدة في الماضي، فلا يزال الموضوع يُثير القلق الكبير لدى الأهل. والحقيقة أنّ غالبيّة العلماء يتّفقون اليوم على أنّ مداعبة الأعضاء الجنسيّة غير مضرّ إذا كان ناتجًا عن اختيار ويؤدّي إلى متعة.

لا حاجة للخوف! إنّ الطّفل الرّضيع يكتشف في مرحلة نموّه الأولى جسمه من خلال لعبه. فهي إذ تكتشف يديها ورجليها، من الطّبيعيّ أن تكتشف أعضاءها الجنسيّة. هذا اللعب بأعضائه الجنسيّة يجلب له المتعة ويكتشف الطّفل الذّكر أن قضيبه يتضخّم أيضًا خلال ذلك، وتكتشف الفتاة بظرها وتتمتّع بهذا الاكتشاف الإضافيّ لجسمها. إنّ هذا السّلوك لا يدلّ إلاّ على أنّ الأطفال يقِظون ومتفتّحون، أي أنّ هذا السّلوك إشارة لنموّهم وتطوّرهم.

لكن إذا لاحظنا أنّ اللعب بالأعضاء الجنسيّة أصبح مهمًّا جدًّا للطّفل، ويمارسه بشكل قسريّ (opssive) (أيّ عدّة مرّات في اليوم ولفترات طويلة)، ومقترنًا بعدم رضا عام لدى الطّفل، فهو لا يتمتّع في الحياة، وإنجازاته الأخرى قد تقلّصت، أو عندما نلاحظ أنّ الطّفل لا يستطيع النّوم دون اللعب بأعضائه الجنسيّة، وأنّه لم يتجاوز مرحلة النّموّ هذه إلى مراحل أخرى علينا أن نتساءل إذا كان هنالك سبب لهذا التّصرّف، وأن نفحص سبب هذا السّلوك.

علينا أن نؤكّد هنا أنّ اللعب بالأعضاء الجنسيّة لا يؤدّي إلى إصابات جسديّة حتّى لو كان قسريًّا، ولا توجد أيّة إثباتات علميّة تؤكّد ذلك.

- **اللعب القسريّ بالأعضاء الجنسيّة**

اللعب في الأعضاء الجنسيّة بشكل قسريّ يفهمه المختصّون، غالبًا، على أنّه وسيلة للحصول على إشباع بديل. إنّ الطّفلة تتصرّف بهذا الشّكل لأنّها تشعر أنّها مهملة، ولا تحصل على الاهتمام الكافي إنّها تشعر أنّها متروكة لوحدها وتحسّ بنقص معيّن فتحاول سدّه بواسطة اللّعب بالأعضاء الجنسيّة. غالبًا ما ينقص مثل هذا الطّفل الاهتمام والحبّ والدّفء، فإذا غابت والدته عنه لفترة طويلة، أو إذا شعر أنّه قد أُهمِل بعد ولادة أخ مريض يتطلّب من الأمّ الاهتمام المطلق وغيرها من الحالات، فإنّه يلجأ إلى نفسه. غالبًا ما يكون هؤلاء الأطفال بحاجة إلى اهتمام الرّاشدين، ويشعرون بقلّة اهتمام الأهل بهم، أو أنّ الطّفل يشعر بالاضطهاد بالمقارنة مع إخوته أو أخواته الآخرين، وربما يحاول الهروب من مشاكل عائليّة تضغط عليه وتحبطه ولا يجد من يعينه عليها، فيهرب إلى نفسه وإلى اللعب بأعضائه الجنسيّة الّتي تجلب له المتعة البديلة، وتشغله لبعض الوقت عن مشاكله.

غالبًا ما يُرافق لعب الأطفال المفرط بأعضائهم الجنسيّة سلوكيّات أخرى، فنراهم منغلقين على أنفسهم، تنقصهم المبادرة ولا يستطيعون إشغال أنفسهم بألعاب مختلفة، غير راضين غالبًا، ويملّون بسرعة.

ربّما استعمل الطّفل هذا السّلوك لإثارة البيئة المحيطة وللحصول على انتباه ممّن حوله، فيلعب بأعضائه الجنسيّة أمام الجميع. قد يكون مثل هذا الطّفل مهملاً كثيرًا، وهذه طريقته للحصول على اهتمام ولفت نظر حتّى ولو كان سلبيًّا.

لا يوجد معنى في مثل هذه الحالة لمحاولات المنع أو العقاب أو التّهديد، بل على العكس فمثل هذه المحاولات تدفع الطّفلة إلى اللعب بشكل مركّز أكثر بأعضائها الجنسيّة كردّ فعل على البيئة، لأنّها تزيد من شعورها بالذّنب، ممّا يؤدّي إلى صراعات جديدة تؤدّي مرّة أخرى إلى إعادة اللعب بالأعضاء الجنسيّة، وبهذا تدخل الطّفلة إلى دائرة مغلقة تعجز عن إيجاد منفد للخروج منها.

يؤدّي اللعب بالأعضاء الجنسيّة إلى منع ومعاقبة، ممّا يخلق لدى الطّفل حاجة إلى الحبّ والحنان اللذين يفتقدهما في من حوله، فيعود إلى ذاته وإلى زيادة الحاجة للّعب بالأعضاء الجنسيّة. وقد يصبح الطّفل فاقدًا للثّقة بنفسه فيتّسم بالاكتئاب، ولا يبقى له بديل أو مواساة سوى اللعب بالأعضاء الجنسيّة مرّة أخرى.

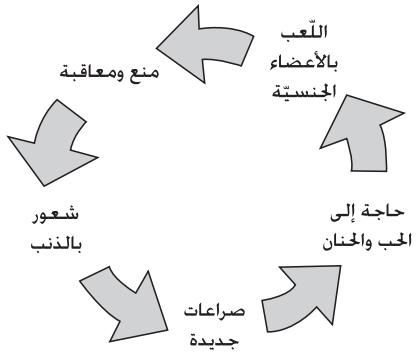

للخروج من هذه الدّائرة، من المفضّل الاهتمام بالطّفلة

وتوفير بيئة مريحة لها مليئة بالحبّ، الإثارة، المبادرة، الفعاليّات المشتركة، فجميعها وسائل تُعيد الثّقة بالذّات وتساهم في تعامل الطّفلة مع ذاتها، وإنْ لم تساعد جميع هذه الوسائل فمن المفضّل التّوجّه إلى استشارة نفسيّة.

- **التّعرّيّ**

من منطلق حبّ الاستطلاع واستكشاف الذّات أيضًا، سنرى أنّ الطّفل يحبّ التّعرّيّ والتّجوّل في البيت. فعندما ننزع ثيابه يهرب عاريًا إلى الخارج أو إلى السّاحة، غير آبه بمن هنالك من أشخاص، ممّا يسبّب الحرج لبعض الأهالي. ولكنّه سلوك طبيعيّ لأبناء السّنتين فما فوق، سيمرّ أيضًا إنْ لم نحاول فرض قيودنا عليه، وإنْ لم نحاول ترجمته في رؤوسنا الرّاشدة الّتي لا تتلاءم مع مميّزات مرحلة الطّفولة. ربّما لو استطعنا تذكّر هذه المرحلة بأنفسنا لكنّا استطعنا النّظر إليها كأمر طبيعيّ، لكنّ غالبيّتنا لا تسعى حتّى إلى ذلك، وكأنّ الرّاشد يعلم ما هو الأمر الصّحيح لأطفاله كما ويعلم أنّ الطّفل يجب أن يتعلّم الخجل. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الخجل هو صفة تنمو مع التّجربة والنّضج. كما أنّه نسبيّ للمجتمع الّذي يعيش فيه الطّفل إذا لا يوجد عمر محدّد لظهور الخجل، لكن نتوقّع من ابن ٦-٨ سنوات أن يرفض الظّهور عاريًا (في مجتمعنا مثلاً) أمام الآخرين، وعندها يجب احترام هذه الرّغبة والحاجة للخصوصيّة.

عندما ترغب الطّفلة بالتّواجد لوحدها، فسوف تقول ذلك مباشرة أو تعبّر عن ذلك بطريقة غير مباشرة (إغلاق باب الحمّام، إغلاق باب الغرفة) وعلينا احترام مثل هذه الرّغبة، كذلك من حقّ الأهل المحافظة على خصوصيّتهم، بل إن ذلك جزء من التّربية الجنسيّة العامّة.

وكضرورة تربويّة، نحن نحتاج إلى أن نضع حدودًا متلائمة مع اعتقاداتنا. شرط أن نثابر عليها ونوضّح دوافعها للطّفل ونكون حازمين في المحافظة عليها.

- **لعبة الطّبيب:**

ظاهرة أخرى من ظواهر حبّ الاستطلاع الجنسيّ هي اهتمام الأطفال بالآخرين من جيلهم، والرّغبة بالفحص المتبادل، وينعكس هذا في اللعبة العالميّة "الطّبيب" فينزعون ملابس بعضهم البعض ويلعبون لعبة الطّبيب. إنّ هذا التّصرّف طبيعيّ، ولا يوجد أي داعٍ للقلق بخصوصه.

إنّ التّعامل مع اللعبة بشكل طبيعيّ، أي عدم الزّجر والصّراخ، بل مراقبة اللعبة عن بعد كأيّ لعبة أخرى يلعبها الأطفال، سوف يسمح لهم بلعبها أمامكم، كما يلعبون البازل والمكعّبات ممّا يوفّر لكم إمكانيّة توفير الحماية إذا حاول أحد ممّن هم أكبر سنًّا استغلالهم، أو إذا استعملت أدوات حادّة. إنّ

محاولة منعهم لا تُجدي نفعًا لأنّها ستدفعهم إلى إيجاد الإمكانيّات للّعب في الخفاء، ممّا يعرّضهم للخطر أكثر.

إنّ الطّفل الّذي اكتشف الفوارق بين الأمّ والأب، والأخت والأخ، يحاول إيجاد الأجوبة عن أسئلته. وعندما لا يتلقى إجابات كافية، فإنّه يحاول بواسطة هذا الفحص أن يحصل على إجابات تكفيه. من الممكن أنّه تعلّم أنّ هذا الموضوع "ممنوع" أو "لا نتحدّث عنه"، ونتيجة لذلك يُثار حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لديه، ويحاول إيجاد الأجوبة بنفسه – وهذا أمر طبيعيّ.

يفضّل ألاّ نمنع الأطفال من ذلك، وألاّ يرافق المنع باستعمال كلمة "عيب" أو ما شابه. إذا لاحظتم أنّ ابنكم/ابنتكم يلعب لعبة الطّبيب بشكل قسريّ، فيجب أن تسألوا أنفسكم عمّا إذا استوفيتم الإجابة لطفلكم حول أسئلته الجنسيّة. عندما تحصل الطّفلة على معلومات بشكل جذّاب وممتع، لا تحتاج للتّعامل مع الموضوع بالسرّ، وبالتّالي فإنّ تزويد المعلومات عبارة عن "إبرة تحصين" للطّفلة.

تجدر الإشارة إلى أنّ "تحصين" الطّفل لا يمنعه من ممارسة لعبة الطّبيب، لكنّ الفرق أنّه سيلعبها دون الشّعور بالخجل أو بالحاجة إلى إخفاء ذلك عنكم، ممّا يساعدكم أيضًا في وضع قوانين للّعب تحميهم.

إنّ توفير التجربة ومرافقتها بشكل ملائم، يعطيان الطّفل الإمكانيّة للتّوجّه بجميع أسئلته إليكم، فيدرك أنّه باستطاعته توجيه كلّ سؤال إليكم وأنّكم ستتعاملون معه بتفهّم وتقبّل. هذا السّلوك مِنَ الأهل والمربّين يوفّر حماية أيضًا للطّفل من راشدين آخرين، يحاولون استغلاله جنسيًا، إذ يقوم هؤلاء باستغلال جهل الأطفال في الأمور الجنسيّة لمصالحهم الشّخصيّة، ويفرضون على الأطفال موانع تمنعهم حتّى من اللجوء إليكم.

- **ظواهر أخرى:**

هنالك ظواهر أخرى مميّزة لهذه المرحلة مثل المبارزة في التبوّل لأبعد مسافة، بخاصّة لدى الذّكور، فهي مظهر آخر من مظاهر الاستكشاف الجنسيّ. وكذلك استعمال الكلام "غير اللائق" كجزء من تطوير اللغة الجنسيّة والتّعرّف على الحدود. إذا استعمل الطّفل كلمة "من الشّارع" أو "كلمة بذيئة"، يمكنكم تفسيرها دون الخوف من استعمالها، وعندها سيعلم الطّفل أنّه لا يستطيع استعمال الكلمة كسلاح ضدّكم لإحراجكم (كما يحدث عندما نمنعه من استخدام كلمة معيّنة فيستعملها في أكثر المواقف إحراجًا لكم). في حين أنّ المشكلة هي أنّ هنالك العديد من الأهالي الّذين "يطربون" لسماع الكلمات والشّتائم هذه، وعندما يحفظها الطّفل ويبدأ باستعمالها ضدّهم فإنّهم يمنعونه مستعملين الوعيد والتّهديد!

بالإضافة إلى جميع هذه المظاهر، فإنّ الطّفل في هذه المرحلة يقوم بطرْح عدّة أسئلة حول الولادة والحمل والفوارق بين الجنسين وما شابه. كما سنرى في الفصل القادم.

توصيات أساسية

ونستطيع تلخيص الاقتراحات الأساسيّة في ما يلي:

السّنة الأولى – على الأهل والمربّيات:

- إعطاء الحريّة للطّفل لاكتشاف أعضاء جسمه ولتعرف عليها، بما فيها الجنسيّة، عن طريق اللمس والتّحسّس.
- عدم معاقبة الطّفلة أو معاملتها بقسوة إذا ما لمست أعضاء جسمها، لأنّ العقاب يضرّ ولا يفيد.
- الاهتمام بأن يلبس الطّفل ملابس مريحة ونظيفة وغير ضيّقة.
- تحتاج الطّفلة إلى صلة دافئة مع جسدها. فهي بحاجة إلى القبلات، إلى الملاطفة، وإلى الحمل على اليدين، فهي توفّر تجارب أولى مع ذاتها ومع الآخرين.
- عدم ملاطفة أعضاء الطّفل الجنسيّة بشكل مركّز ثمّ القيام بمنعه هو عن ذلك. فالعديد من الأهالي يداعبون أعضاء طفلهم الجنسيّة ويغنّون لها أغاني خاصّة، خاصّة للذّكور من بينهم؛ ثمّ عندما يحاول الطّفل لمس عضوه الجنسيّ يضربونه على يديه. هذه الازدواجيّة في المواقف تبلبل الطّفل. من المفضّل إعطاء الطّفل الفرصة لأن يتعرّف بذاته على أعضائه الجنسيّة دون فرضها عليه ودون منعه عنها.

السّنة الثّانية – بالإضافة إلى كلّ ما ذكر:

- من المهمّ أن تتعرّف الطّفلة على الأسماء الصّحيحة لأعضائها. إنّ اللغة الصّحيحة هي أحد جوانب التّربية الجنسيّة.
- إتاحة الفرصة للطّفلة في عمر السّنتين أن تجري عارية أثناء تغيير ملابسها، فلا نحرجها إذا قامت بذلك.
- الإجابة عن أسئلة الطّفل حول الفروق بين الجنسين ومساعدته في تقبّل كونه ذكرًا أو أنثى.

- انتظار الأطفال لينضجوا ويصبحوا مستعدّين للمحافظة على نظافتهم الشّخصيّة.

الفترة ما بين ٣-٦ سنوات:

بالإضافة إلى كلّ ما ذكر:

- توفير مُثيرات متنوّعة للطّفلة في بيئتها.
- إكتساب القيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة المناسبة.
- الإستجابة إلى مظاهر حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لدى الطّفلة، وتوفير إمكانيّات من البيئة القريبة لإشباع حبّ الاستطلاع.
- إشعار الطّفل بجوّ من الرّاحة والطّمأنينة.
- الإجابة عن أسئلتها المختصّة بالفروق بين الجنسين، على أن تكون الإجابة متلائمة مع الأسئلة الّتي تسألها الطّفلة وتلائم مستوى نضجها.
- تزويد الطّفل بالمعلومات الصّادقة والكافية ليشبع حاجاته ورغباته في المعرفة. وعدم معاقبة الطّفل عند اهتمامه بهذه المواضيع لكي لا يجعلها سرّيّة.
- الأهل والمربّيات هم نماذج تعلّم.
- من المهمّ تقديم المعلومات الدّقيقة للطّفلة/الطفل حول الجسم ووظائفه.
- عدم الاستهزاء بمشاعر الأطفال مهما كانت غريبة عليكم.
- أن يقوم كلّ من الأمّ والأب بالعناية بالطّفل/ة.

الفصل الرّابع:

أسئلة الأطفال

مظهر آخر من مظاهر حبّ الاستطلاع الجنسيّ هو أسئلة الأطفال، فهم يطرحون أسئلة مختلفة حسب مرحلة نموّهم ومستواهم. ومن المهمّ جدًّا أن تتوفّر لهذه الأسئلة إجابات.

يتساءل البعض: "متى يسأل الطّفل أوّل سؤال؟" والحقيقة هي أنّ لكلّ طفل وتيرة خاصّة بالنّموّ، وعندما يسأل فهو يكون مهتمًّا بالإجابة. من المحبّذ أن ننتظر إلى حين يطرح سؤاله الّذي ينمُّ في كثير من الأحيان عن مستوى معرفته وقدرته على الإدراك، كما سيتبيّن من الأمثلة المقدّمة هنا.

أسس الإجابة عن أسئلة الأطفال

قبل الدّخول في الأسئلة العينيّة، علينا التوقف لحظة عند أسس الإجابة عن أسئلة الأطفال.

- **الإصغاء:**

ينبغي أن نُصغي إلى الأسئلة الّتي تطرحها الطّفلة عن الموضوع، وقد تأتي تلقائيّة أو قد تبرز لدى سماعها عبارة لم تفهم معناها، أو وقوع حدثٍ لم تستوعب مضمونه أو لفت انتباهها وأثار استغرابها. وقد تأتي بشكل مباشر أو بشكل ملاحظة تبديها الطّفلة، وكمطالبة إلى مزيد من الإيضاح.

إن أسئلة الطفل تعكس بشكل عامّ حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لديه، كما تعكس لنا الكثير عن مدى فهم الطّفل ومدى معرفته. الإصغاء إلى أسئلة الأطفال مصدر أساسيّ لمعرفة اهتمامات الأطفال، ومشاكلهم ومخاوفهم. لهذا من المهمّ أن ينتبه الأهل والمربّون وأن يستمعوا إلى طفلهم.

- **التّكرار:**

لكي تذوّت الطّفلة المعلومة وتحوّلها إلى معرفة فإنّها بحاجة إلى إدراكها، وهذا يتمّ بواسطة عدّة وسائل، من أهمّها التّكرار. فإذا رسمت الطّفلة دائرة كبيرة ودوائر صغيرة بداخلها، مثلاً، واكتشفت التّشابه بين الشّكل النّاتج وبين وجه الإنسان فإنّها تتمتّع بالأمر وتُعيد التّجربة، مثل هذه الإعادة من شأنها أن تزيد المتعة وتزيد الرّسم إتقانًا.

من المتوقّع أن يكرّر الطّفل السّؤال نفسه عدّة مرّات، لذا علينا أن نتحلّى بالصّبر ونُعيد الإجابة، فهو بحاجة لأن يسمع الإجابة مرّات متكرّرة ليتعلّم ويتدرّب عليها. فكما نعيد للطّفل الأغنية عشرين مرّة (دون ملل) علينا إعادة الإجابة كذلك.

- **دعوا أسئلة الطّفل توجّهكم**

إنّ أيّ متخصّص بالعمل مع الأطفال يعلم أنّ حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لدى الطّفل سيدفعه ليسأل، ومن البديهيّ أنّ تتناسب إجابتنا وقدرته على الاستيعاب.

إنّ نقطة الانطلاق الأولى هي معرفة تصوّرات الطّفلة. علينا التّعامل معها لنوضّحها ونبلورها ونكملها ونصحّحها (ونصحّح نواحي الخطأ فيها)، كتصوّر الطّفلة مثلاً أنّ عمليّة الحمل تتمّ نتيجة لتناول طعام معيّن، وأنّنا نشتري الأطفال من السّوق وما شابه. إنّ معرفتنا تصوّرات الطّفلة توفّر لنا إمكانيّة الإجابة بشكل منسجم مع حاجاتها دون أن نقحمها في مواضيع لم تطرحها بعد على نفسها.

سأل طفل أمّه "ماما من وين جبتوني"؟ فقالت الأمّ: "أحضرتك من المستشفى". فسأل: "ومن وين جابوك إنتِ"؟ فقالت: "لقد اشترتني أمي من السّوق". فسأل مرّة أخرى: "وأمّك من وين أجت"؟ فأجابت الأمّ "لقد وجدوها تحت الزّيتونة". عندها صاح الولد "يا الله، منذ ثلاثة أجيال ولم تحدث ولادة طبيعيّة في عائلتنا"!

عندما تطرح الطّفلة سؤالها علينا، يستحسن أن نسألها عن تصوّرها هي عن الموضوع. فإذا أفصحت عمّا يدور في ذهنها من تصوّرات، انطلقنا منها لنتحاور معها ونفّزها على المزيد من التّفكير والتّحليل، ونقدّم لها بوضوح وإيجاز المعلومات النّاقصة لديها والّتي تتناسب مع إمكانيّة استيعابها. بشكل عامّ يمكننا القول إنّه عندما تسأل الطّفلة تكون مستعدة للتّعلّم – فلماذا الانتظار؟

مهما كانت نوعيّة الأسئلة فعلى الإجابة أن تتلاءم مع مستوى نموّ الأطفال، وسؤالهم يعبّر عن هذا المستوى. فإذا أصغينا إلى أطفالنا بحذر استطعنا إدراك سؤالهم تمامًا وعندها

علينا ملاءمة إجابتنا مع السّؤال. فإيصال معلومات كثيرة دفعة واحدة يبلبل الطّفل، كما من المهمّ هنا أن نهتمّ (في أسس التّربية الجنسيّة الشّموليّة الّتي ذكرناها في الفصل الثّالث)، من أن تكون التّربية الجنسيّة: مستمرّة، تدرجيّة، حواريّة، وأن تستعمل النّبرة العاديّة واللغة الصّحيحة وتعتمد الصّحة في إجاباتنا. بالإضافة إلى شموليّة التّوجّه.

نماذج عن أسئلة ممكنة:

هنالك عدّة أسئلة يمكن أن يطرحها الطّفل علينا في سنوات حياته الأولى. وكثيرًا ما نمنعه من طرحها أو نوجّه انتباهه إلى أمر آخر، من دون أن تأخذ أسئلته الاهتمام الكافيّ. سنحاول هنا التّعرّض لبعض نماذج الأسئلة، وبعض الإجابات الممكنة، لكن تذكّروا أنّ الأسس الّتي ذكرناها سابقًا هي الموجّهة لنا في صياغة الإجابات الممكنة، ومن شأنها مساعدة كلّ أهل ومربّية أيضًا في إيجاد إجابتهم الخاصّة الملائمة لهم ولطفلهم ولمجتمعهم، شرط أن تكون الإجابة صحيحة. وعلينا التّحلّي بالصّبر، فإجابة الطّفل بـــ "إنّك صغير ولا تفهم بعد" هي إجابة تدلّ على عدم الصّبر، بل عدم الاحترام أيضًا.

يسأل الأطفال:

- كيف يأتي الأطفال إلى هذا العالم؟
- من أين يأتي الأطفال؟
- ما الفرق بين الولد والبنت؟
- لماذا يكبر بطنك يا أمّي؟
- كيف دخل الطّفل إلى بطنك؟

لعلّ أوّل سؤال يسأله الأطفال، هو عن الفوارق بين الجنسين، وفي ذلك نقول إنّ الطّفل يألف الفوارق بين الجنسين من خلال علاقته بأمّه، وأبيه، وإخوته، وإخوانه وعائلته الموسّعة. وعندما يدركها سوف يسأل عنها.

ما هذا؟

"ما هذا؟" يسأل الطّفل الصّغير موجّهًا يده إلى عضوه الجنسيّ.

"هذا قضيبك، لكلّ الصبيان والرّجال قضيب".

وعندما تسأل الطّفلة الصّغيرة السّؤال نفسه، فهي أيضًا ليست بحاجة لمعرفة تشريح الجسم، بل اسم هذا الجزء من جسمها، مثل حاجتها لمعرفة فمها وأنفها،.. وكما نقول لها "هذا فمك" ولا نقول لها "فيه يوجد لسان والأسنان.. ووظيفة الأسنان هي المضغ،..الخ" كذلك الأمر هنا يمكن أن نقول: "هذا فرْجك، لكلّ البنات والأمّهات فرْج".

ربّما تسأل:

"ولماذا لا يوجد لأخي فرج؟"

نستطيع الإجابة: "لأخيك قضيب، لكلّ الصبيان والآباء قضيب، ولكلّ الأمّهات والبنات فرج".

علينا الإجابة عن مثل هذه الأسئلة المتعلّقة بالفوارق بين الجنسين بصراحة ووضوح، لنؤكّد للطّفل أنّه مولود متكامل الأعضاء. من المهمّ أن نستعمل الكلمات الصّحيحة والدّقيقة في حديثنا معه، فإذا استعملنا كلمة فرْج ستتعوّد الطّفلة أيضًا على تسمية عضوها الجنسيّ بالاسم الصّحيح، تمامًا مثلما يتعلّم الأطفال الكلمات الخاطئة الّتي ترتبط بأعضائهم كلّما أشير إليها ("حمامة، حموشة،..>). استعمال صحيح للكلمات يجنّب الأطفال الارتباك والخجل والإثارة إذا ما ذكرت هذه الكلمات أمامهم، بل إنّ استعمال الكلمات الصّحيحة الخالية من المعاني الاجتماعيّة تساعد في التّواصل الكلاميّ بين الأهل والطّفل، وتساعد الأهل على التّحدّث عن الموضوع دون خجل وارتباك.

من المهمّ أن تكون الإجابة صريحة لأنّ ذلك من شأنه أن يبني علاقة الثّقة المهمّة جدًّا. فالثّقة الأساسيّة هي حجر الزّاوية في العلاقة المستقبليّة بينكم وبين طفلكم، وأساس رؤيته لكم كداعمين متقبّلين له وكمرجع دائم لتساؤلاته.

ربّما يمرّ شهران أو حتّى نصف سنة دون أن يعود الطّفل إلى السّؤال، وربّما يسأل بعد ساعة السّؤال نفسه. ويمكن أن يكون السّؤال القادم عن جسمنا نحن أو عن أجسام آخرين تعرّف عليها الطّفل، وفي جميع الأحوال يجب أن نُجيبه بوضوح وصراحة.

"مِن أين أتيت؟"

سؤال شائع يتردّد على ألسنة الأطفال "من أين أتيت؟" أو "من أين يأتي الأطفال؟"

نستطيع البدء بالإجابة بالاستفسار عمّا يعرفه الطّفل، وبعدها نصحّح، ندقّق، حسب مستوى الطّفل ومعرفته.

من المهمّ أن تكون الإجابة بسيطة وواضحة. فعندما يسأل:

من أين أتيت؟ نستطيع الإجابة: "من بطن الماما" مثلاً، أو: "لقد كبرت داخل جسم الماما وعندما كبرت كفاية ولدتْك".

وفي مرحلة متقدّمة، يمكننا القول: "من بطن الماما، حيث كبرت في مكان خاصّ نسمّيه الرّحم الّذي يحافظ على الطّفل ويوفّر له الدّفء".

يمكن أن يطلب الطّفل: "ماما قولي لي المزيد"، أو "كمان دُوْرْ" فنُعيد الإجابة مرّة أخرى. لقد حصل الطّفل على شعور مُريح، وربّما على معرفة تريحه لفترة ما قبل أن يعاود السّؤال في مراحل لاحقة.

يمكن أن يسأل طفل أكبر سنًّا: "هل يأتي كلّ الأطفال من بطن أمّهم؟"

فنُجيب: "كلّ طفل يبدأ كجنين صغير داخل أمّه، وبعدها ينمو وينمو حتّى يكبر ليستطيع العيش خارج الرّحم". إنّ هذا ليس تهرّبًا من الإجابة بل هو إجابة صحيحة، متلائمة مع مستوى نموّ الطّفل. إذا وجدت الثّقة واحتاج الطّفل إلى المزيد من الاستيضاح، فسيدري إلى من يلجأ.

- وقد يسأل: "طيّب كيف في بالبطن وَسْعة لطفل صغير؟"
- فنسأله "هل البطن فاضي؟"
- "طبعًا لا"
- "شو في بالبطن؟"

- "في البطن معدة تحمل الأكل، وفي الصّدر قلب نستطيع أن نشعر بدقّاته، ولدى النّساء هنالك مكان صغير في البطن اسمه الرّحم يكبر فيه الطّفل".
- "كيف يخرج الأطفال؟"

الأطفال في عمر ٤-٥ سنوات أو أقلّ، لا تكفيهم الإجابة: "إنّ الطّفل ينمو في بطن أمّه"، فيسألون:

- "كيف يخرج الأطفال من بطن أمّهم؟"

نُجيبهم حين يسألون في هذا العمر بناءً على معرفتهم، فكثيرًا ما يأخذ الطّفل معلومات خاطئة من أشخاص آخرين.

- فقد سأل سمير: "كيف يطلع الولد من بطن الماما؟"

- سألته: "كيف حسب رأيك؟"
- فقال: "بشقّوا بطن الماما ويطلع".
- فقلت له: "صحيح إنّه في بعض المرّات بشقّوا بطن الماما. ولكن غالبًا ما يطلع الطّفل من بطن الماما لحاله".
- "كيف؟" سأل للمزيد من التّوضيح "من وين طلع؟"
- فقلت: "من مكان خصوصي عند الماما بطلع منه الطّفل".
- "وين هذا المكان؟" سأل مستفسرًا.

واضح أنّ سمير يدرك المعلومات الّتي تلقّاها ويحاول تلقّي المزيد، فقلت: "الفتحة الخصوصيّة موجودة بين رجلين الماما من هناك يخرج الجنين".

- فقال: "لا هيك بجيبوا الحيوانات، أنا شفت في التّلفزيون كيف جاب الفيل".
- فقلت له: "عظيم مثل ما خرج الفيل من بين رجلين أمّه، هيك الولد بخرج من بين رجلين أمّه".

لقد حصل سمير على معلومات غير كاملة حول خروج الطّفل من بطن أمّه، وكان المهمّ تصحيحها بشكل حذر، لأنّ مصدر معلوماته كان أشخاصًا يحبّهم وهم مصدر ثقة له، ومن المهمّ ألاّ نضعضع هذه الثّقة المهمّة عندما نصحّح معلومات الطّفل. لذا لم أرغب في التّشكيك بمصدر هذه المعلومات، بل وجب تصحيحها بحذر.

ربّما يُعيد الأسئلة مرة أخرى، فيمكننا زيادة المعلومات ونقول:

- "مثل ما بتعرف الجنين كبر في الرّحم في بطن الماما، كبر وكبر حتّى صار طفل وفتّش على طريق يطلع من الرّحم فلاقى قناة خصوصيّة نسمّيها عنق الرّحم".
- "مثل ما بتعرف أنّ البنات والماما عندهن فتحة هي "الفرج" حيث ينتهي هناك عنق الرّحم ويصل إلى فتحة خصوصيّة بين رجلين الماما ومن هنالك خرج الجنين".
- فيما بعد يمكن أن يسأل: "كيف يطلع الطّفل من مكان صغير مثل هذا؟"
- فنُجيب: "عنق الرّحم بتمدّد مثل المطّاط بشكل يكفي لخروج الطّفل". "إنّ هذه الفتحة تتوسّع عند الولادة ويخرج الطّفل منها".
- "هل ولادة الأطفال بتوجّع؟" قد يسألون.

- "ممكن أن يوجع، لكنّ الأم تكون مسرورة بحضور طفلها فيخفّف من وجعها".

ويمكن الإضافة في المستقبل، وعندما يعيد الطّفل السّؤال:

- "الطّبيب يساعد الماما، ولذا هي بحاجة إلى عناية خاصّة وقت الولادة، لهذا تذهب إلى المستشفى للولادة هناك".
- "هل للأطفال أطفال في داخلهم؟"
- "لا، فقط الأمّهات". فيما بعد يمكن إضافة "عندما تكبر وتتزوج يمكنك أن تنجب أطفالاً".
- "هل سيكون لديّ طفل؟"
- "عندما تكبر يمكن أن تلد زوجتك" أو "تكبرين وتتزوّجين يمكن أن تلدي طفلاً".

قد يحاول الطّفل عند بلوغه عمر ٥-٦ سنوات أن يوسّع مداركه، وهو بحاجة ومنذ البداية أن يعرف أنّ له أمًّا وأبًا كما لكلّ الأطفال والحيوانات.

- "كيف دخل الأطفال إلى بطن الماما؟"

حين يبلغ الأطفال جيل السّادسة-السّابعة، أو حين يصلون إلى السّؤال السّابق، نستطيع إجابتهم:

- "إنّ الماما (كلّ ماما) في بطنها بيضات صغار كثير كثير مثل رأس الدّبوس هذه البيضة تلتقي مع البويض وتكبر خلال تسعة أشهر لتصبح طفلاً".
- ونستطيع أن نشرح كيف تكبر هذه النّطفة البيضة والبويض: "تدخل النّطفة إلى الرّحم وهنالك تكون محميّة كثيرًا ومربوطة في السُّرّة مع الأمّ".
- من الممكن أن يسأل "ما هو الرّحم؟" فنقول: "إنّه جيب خاصّ في بطن الأمّ تحمل فيه أطفالها. وهذا الجيب مكوّن من اللحم الليّن كطابة المطّاط أو كالبالون، وله ممرّ صغير يؤدّي إلى فتحة بجسم الأمّ، يخرج منها الأطفال عندما يكبرون. في الرّحم يكون الأطفال محميّين وفي جوّ دافئ ومريح لكي يستطيعوا النّموّ".
- "كيف يأكل الطّفل ويتنفّس وهو في الرّحم؟"
- "قبل أن يولد الطّفل، لا يأكل من فمه أو يتنفس من أنفه مثلنا، بل يتلّقى كل ما يحتاجه من طعام وهواء من أمّه".

في مرحلة لاحقة، يمكن زيادة المعلومات بأن نقول: "بواسطة حبل السُّرّة الّذي يكون مربوطًا من

جهة في رحم الأم ومن جهة أخرى في معدّة الطّفل عند سُرّته".

- "كيف حدث هذا؟"

في مرحلة متقدّمة يحبّ الأطفال أن يعلموا "كيف حدث ذلك؟"، وعندها يمكنكم ببساطة أن تقولوا له: "إنّ بويض[١٠] (الأب يحب أن ينضمّ إلى بويضة في جسم الأم. وهذه الخلايا صغيرة جدًّا لدرجة أنّه لا يمكننا رؤيتها، لكن عندما تتّحد تبدأ بالنّموّ إلى أن يصبح الطّفل قادرًا على العيش خارج رحم أمّه فيولد."

ما هو دور الأب؟

""إن الأب يعطي البويض الّذي يتّحد مع البويضة وبذلك يبدأ تكوّن الجنين في الرّحم، ويكبر الطّفل هناك".

فقط في مرحلة متأخّرة، يمكن أن يسأل الطّفل:

- "كيف يدخل بويض الأب إلى رحم الأمّ؟"

من الجدير هنا التّذكّر أن أكبر دليل على أنّ الطفل قادر على استيعاب الجواب هو طريقة طرحه للسّؤال. فصيغة السّؤال تدلّ على مستوى نضج الطّفل. نستطيع الإجابة:

- "أنت تعرف أنّ لكل أب وطفل يوجد قضيب، ولكلّ أمّ وطفلة يوجد فرج، وهكذا فإنّهما يتعانقان ويتبادلان تعبير الحبّ، فيجدان في ذلك متعة كبيرة، ويسعدان بحبهما لبعضهما. هكذا يستطيع قضيب الأب الدّخول في فرج الأمّ، فيخرج البويض من قضيب الأب ليلتقي مع البويضة الّتي لدى الأمّ، فيتّحدان ثمّ يدخلان إلى الرّحم ليكبرا ويكبرا إلى أن يصبح الطّفل حاضرًا للعيش خارج رحم الأمّ، هكذا يتكوّن كلّ الأطفال".

من المهمّ أن نشرح للطّفل أنّ الحبّ والزّواج هما جزء أساسيّ من القصّة، وأنّ الأب والأمّ أرادا هذا الطّفل.

١٠ كلمة حيوان منويّ وحيوانات منويّة يمكن أن تُثير اشمئزازًا أو مشاعر أخرى ارتبطت عبر التّربية مع كلمة حيوان، وهي عادة سلبيّة. وبما أنّ الطّفل الصّغير لن يدرك الخلفيّة العلميّة لمثل هذه التّسمية، فأقترح استعمال كلمة "بويض" أو "سبيرم" للدّلالة على الحيوان المنويّ مع الاعتذار لمجمع اللغة العربية!

• **كم يجب إبلاغ الطّفل؟**

استمعوا جيّدًا إلى ما يسأله الطّفل! إنّ الإجابة البسيطة والصّريحة يسهل فهمها، بينما الإجابة الموسّعة والمعقّدة تبلبل. تتحدّد كميّة المعلومات كما ذكرنا سابقًا بعمر الطّفل ومستوى نموّه، وأسئلته هي إشارة لمثل هذا المستوى. إذا احترتم، وَجِّهوا السّؤال للطّفل لمعرفة: كم يعلم؟ وماذا يعلم؟ وعندها ربّما يسهل عليكم الأمر.

لا يوجد خطر من قولكم أكثر من اللازم، أو من تفسير الأمر باكرًا، فإنّ الطّفل الّذي لا يفهم الأشياء سينساها، بينما هناك خطر في التّفسير الشّحيح أو المتأخّر.

إنّ الجهل والأفكار الخاطئة هي الّتي تضايق الطّفل بخاصّة اليوم، فإنّه يحصل على معلومات لا نعلم ما كنهها من وسائل الإعلام والأطفال الآخرين. لهذا حتّى إنْ لم يسألنا الطّفل يجب أن نتحدّث معه.

• **التّعلّم من الطّبيعة:**

هنالك من يوصي بالتّعلّم من الطّبيعة! إنّ الطبيعة مصدر للمعرفة، لكنّها لا يمكن أن تقوم مقام التّعلّم عن الذّات. إنّها وسيلة لحثّ الطّفل على السّؤال، ووسيلة للمراقبة والتّعلّم، لكنّها لا تغني عن مرافقتكم وشرحكم.

• **أخ جديد أو أخت جديدة:**

عندما تحمل الأمّ ولديها أطفال آخرون قادرون على استيعاب ما يحدث (أبناء سنتين فما فوق)، يجب عليها مشاركتهم، بل تحضيرهم لاستقبال المولود الجديد. هذه فرصة لكي يتابعوا الطّفل في بطن الأمّ، وعندما يبدأ بالحركة يمكن أن يحاولوا أن يسمعوا نبضات قلبه. إنّ ذلك من شأنه أن يوفّر للطّفل تجارب غير منسيّة حول الحمل والولادة، كما يحضر الطّفل لاستقبال الأخ الجديد أو الأخت الجديدة، ويمنع حدوث صراعات معه/ا أيضًا.

إن ولادة طفل جديد في البيت هي فرصة مناسبة لتحضير الطّفل الأكبر وإثارة أسئلته، فقد يتوجّه طفل إلى أمّه:

- "ماما أنت ناصحة كثير!"
- الأمّ: "بطني يكبر وهنالك سبب مهم لذلك، سأقول لك خبر كثير حلو".
- "عندك أخ صغير عم يكبر بداخل الماما، وهيك بالضّبط كنت لما كنت أنتظر قدومك، وعندها كنت مسرورة. وكمان الآن أنا مسرورة".

- **كيف يمكن تحضيره للولادة؟**

يمكن أن تقولي له

- "المولود الجديد سيكون صغيرًا (يمكن للأمّ أن تريه كم سيكون صغيرًا).
- المولود الجديد لا يستطيع أن يأكل أكل الكبار.
- المولود الجديد يرضع طعامه من صدر الماما.
- المولود الجديد يبكي مرّات كثيرة، وهذه طريقته في الحكي.
- المولود الجديد بحاجة للنّوم."

لا يمكن إيصال المعلومات بشكل محاضرة ودفعة واحدة، بل من خلال أحاديثنا اليوميّة وعلى مدى تسعة أشهر، تستطيعين تحضيره وزيادة اهتمامه بما يحدث.

يجب أن يعلم الطّفل أنّ الماما ستذهب إلى المستشفى، وماذا سيحدث له أثناء ذلك: أين سيبقى عند ذهاب الأم؟ متى سيحضر لزيارتها في المستشفى؟ وغيرها من ترتيبات. يمكنكم استعمال قصّة لتحضيره لذلك.

يمكن انتظار أسئلة مثل:

- هل يؤلمك؟
- هل هو في بطنك الآن؟
- كيف دخل إلى هناك؟
- كيف سيخرج؟

قد تحتاجين إلى إعادة الإجابات مرّات متكرّرة، وهذه الإعادة مهمّة جدًّا للطّفل إلى أن يحين الوقت الّذي يربط فيه جميع الأجزاء سويّة، ويكفّ عن إعادة السّؤال.

إذا لم يسأل الطّفل:

هناك سببان فقط لإخفاء حبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لدى الطّفل. أوّلهما – أنّه تمّ كبته في أوّل محاولاته لتلقّي الإجابات، أو أنّه أبعدَ اهتمامه لخوفه أو لعدم قدرته على حلّ الصّراعات المتعلّقة برغبته في المعرفة. فعندما يلقى حبّ استطلاعه واهتمامه بأسئلة جنسيّة رفض الأهل، يدرك الطّفل أنّ طرحه لمثل هذه الأسئلة يفقده حبّ أهله له، فيفضّل عدم التّطرّق إلى الموضوع، على الرّغم من أنّ عدم

تطرّقه للموضوع لا يعني عدم اهتمامه، بل يلجأ الطّفل إلى مصادر أخرى للحصول على معلومات أو أنّه يكبت اهتمامه بشكل دائم.

نتيجة لتهرّب الأهل من الإجابة عن الأسئلة العفويّة عن جسم الطّفل وأعضائه الجنسيّة، يشعر الأخير أنّ ميدان الجنس ميدان مُخيف وآثم، لهذا فإنّه يتفحص موقف الأهل حياله، فيحاول التّهرّب من مواجهة النّزعة الجنسيّة في داخله، ويتجاهل وجودها فيه، وهذا يعتبر كبتًا. هذا الكبت ترسّخه بالطّبع عوامل أخرى في شخصيّة الطّفل وعلاقته بوالديه.يمكن أن يؤدّي الكبت إلى:

١. نفور من الحياة الجنسيّة وكلّ ما يتعلّق بهذا المجال.

٢. عزل الجنس عن مسار الشّخصية المتكاملة.

٣. تأجيج الفضول الجنسيّ.

٤. الخمول الذّهنيّ.

٥. اختلال ثقة الطّفل بنفسه وثقته بوالديه.

السّؤال هو وسيلة واحدة لإشباع حبّ الاستطلاع. والإجابة عن السّؤال هي وسيلة واحدة للتّربية الجنسيّة. إنّ سلوكنا اليوميّ وردود فعلنا يدخلان في مضمار التّربية الجنسيّة، والطّفل الّذي لا يسألنا قد يسأل في مكان آخر ويحصل على إجابات تكفيه، أو أنّه من خلال تجاربه مع أهله تعلّم ألاّ يسأل وأن يكتب الأسئلة. مثل هؤلاء الأطفال بحاجة إلى مساعدة وإلى إثارة حبّ استطلاعهم من جديد، وعدم إبقائهم في حال المعلومات النّاقصة.

بكلمات أخرى، يرجع عدم السّؤال إلى أنّه عندما طرح الطّفل سؤاله لم يجبه أحد، أو أنه تمّ توبيخه، أو لم تتح الفرصة له للسّؤال عن أمور كهذه فانتابه شعور بالخجل لجهله. لقد جمع معلومات من هنا وهناك لسدّ حاجاته ومنها معلومات خاطئة، ممّا أدّى إلى:

١. الشّعور بالذّنب وبربط النّشاط الجنسيّ بالعيب.

٢. الخوف من فقدان حبّ من يحبّهم (أهله)، حيث أنّه سأل أسئلة أغاظتهم، فيتعلّم عدم السّؤال.

من الممكن أن لا يطرح الطّفل سؤاله عن جسمه أو أجسامنا، لكن هنالك سلوكيّات قد تشير إلى حاجته للإجابات والمعلومات، كأن يحاول دخول غرفة النّوم أو الحمام عندما تكون مغلقة وأنتم بداخلها، أو أن يلعب لعبة الطّبيب بكثرة. هذه تصرّفات تدلّ على أنّ الطّفل بحاجة إلى معلومات.

إذا لم يسأل الطّفل حتّى عمر ٦ سنوات، فيجب إيجاد الطّريقة المناسبة لإثارة أسئلته ولإعطائه المعلومات الصّحيحة، وإلاّ فسيتلقاها من مصادر أخرى.

في مثل هذا الوضع، يمكننا تشجيع الطّفل على أن يتوجه بالسّؤال المباشر كأنْ نقول له: "عندما كنت صغيرة فكّرت كيف يولد الأطفال، هل تفكّر أنت في ذلك؟" ربّما أجاب: "أنا أعرف كيف يولد الأطفال".

هذه بداية جيّدة للاستفسار عمّا يعلم ولتصحيح وتوضيح معرفته. ونستطيع انتهاز فرصة ميلاد طفل أو طفلة في العائلة لنبدأ بتوضيح بعض الحقائق الجنسيّة الّتي تتناسب مع سنّ الأطفال ومستوى نموّهم. كذلك فإنّ مراقبة الحيوانات والاختلاط مع الأطفال الآخرين يسهم في التّربية الجنسيّة. وهنالك دور كبير للحضانة والرّوضة في التّربية الجنسيّة، كما سيرد لاحقًا في الفصل الخامس.

الفصل الخامس:

التّربية الجنسيّة الشّموليّة في الحضانة والرّوضة

إنّ التّربية الجنسيّة الشّموليّة هي التّربية الّتي تأخذ بالحسبان جميع مجالات النّموّ وتتعامل مع الطّفل كوحدة واحدة وليس كأجزاء منفصلة عن بعضها البعض. ولكن الرّؤية الشّموليّة لا تقتصر على شموليّة التّعامل مع الفرد، بل ترى الفرد جزءًا من عائلة والعائلة جزءًا من المجتمع. وهي تحاول مشاركة جميع مؤسّسات التّربية الرّسميّة وغير الرّسميّة في تحديد أولويّات التّربية الجنسيّة وبرامجها، فإذا لم يشترك الأهل في تخطيط التّربية الجنسيّة لممارستها في المؤسّسات الرّسميّة، فسيقع الطّفل في بلبلة وسيتعلّم ازدواجيّة القيم واللغة والسّلوكيّات. كما يجب السّعي لخلق وعي مجتمعيّ لأهمّيّة التّربية الجنسيّة ولأسسها لكي يتمّ التّكامل المجتمعيّ.

بناءً على ذلك، يجب أن تشمل التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة المفهوم الشّامل للتّربية، وأن تكون جزءًا مكمّلاً للحياة العامّة والجماعيّة فيها.

هذا يعني أنّه عندما يحاول المربّي أو المربّية تقديم العناية اليوميّة للطّفل أو الطّفلة من طعام وغيار وفعاليّات متنوّعة، فإنّه يربّي ويؤثّر على جميع مجالات النّموّ، بما فيها الجنسيّة. وعندما يربّى الطّفل على المزيد من الاستقلاليّة، أو يدعم المربّي النّموّ الاجتماعيّ بتشجيع الصّداقات بين الأطفال، وعندما يهتمّ بدعم الأطفال للاهتمام بمن حولهم وبأخذهم بالحسبان وتقبّلهم، وعندما يبادر إلى أعمال جماعيّة، (ألعاب تحسّس، ألعاب أصابع، ألعاب تمثيليّة وما شابه) فهو في الواقع يربّي جنسيًّا، تمامًا كما في الأوقات الّتي يوفّر فيها معلومات عينيّة حول الجنس، وذلك من منطلق رؤية تربويّة شموليّة.

تبدأ شموليّة التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة من إدراكنا للعناصر المشاركة والمؤثّرة في العمليّة التّربويّة: الطّفل، الأهل والمربّيات.

الطّفل:

تعدّ السّنوات الخمس الأولى الأساس لبناء شخصيّة الطّفل المستقبليّة، ورؤيته لذاته وللآخرين من حوله. وقد كُتب الكثير حول التّربية في هذه المرحلة، ونستطيع القول أنّ ما يصحّ كأسلوب تعامل في التّربية العامّة، هو صحيح بالنّسبة للتّربية الجنسيّة. وورد سابقًا أنّ التّربية الجنسيّة هي جزء لا يتجزّأ من التّربية العامّة، فلا أحد يستطيع القول "أنا أربّي جنسيًّا" وآخر يقول: "أنا لا أربّي جنسيًّا!" جميعنا نربّي، والسّؤال هو: كيف يربّي كلّ منّا؟

حين يحضر الطّفل إلى الحضانة أو الرّوضة يحمل معه تجربة حياتيّة اكتسبها من المعتنين به في البيت، وبضمنها ما هو متعلّق بهويّته الجنسيّة. من الضّروريّ أخذ هذه التّجربة في الحسبان.

الأطفال كائنات محدّدة الجنس، وجنس الطّفل هو صفة أوّليّة تحدّد عند اللقاح. والرّغبة الجنسيّة هي طاقة طبيعيّة متوفّرة لدى الطّفل منذ الولادة، وهي تنمو حسب قوانين النّموّ النّفسوجنسيّة، ولا نستطيع تجاهلها في أيّة عمليّة تربويّة نقوم بها.

الأهل:

يجب إشراك الأهل في تحديد مسار التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة. ونبدأ بتوضيح الخلط الّذي يجريه البالغون عادةً بين هويّتهم الجنسيّة وهويّة أطفالهم الجنسيّة، حين يعتقدون بأنّ التّربية الجنسيّة للأطفال محصورة بتقديم معلومات عن العلاقة الجنسيّة ويخافون مشاركة أطفالهم بذلك. إنّهم لا يدركون أنّ هويّة الأطفال الجنسيّة مختلفة عمّا يعتقدون، فهي تمرّ بمراحل تصاغ وتتبلور خلالها جنسانيّتهم. فبالإضافة إلى التّعرّف على الأعضاء الجنسيّة ووظائفها، تتبلور جنسانيّتهم من خلال تجارب الطّفل، ومتعته، وشعوره بالحبّ، وقربه الجسديّ للآخرين، وميله لأشخاص معيّنين، والملاطفة والمشاركة بين الأطفال، والمداعبة لأعضائه الجنسيّة، والألعاب التّمثيليّة ومعايشات عديدة أخرى مع الأطفال والرّاشدين من حولهم.

المربّون والمربّيات:

إنّ المربّين والمربّيات بحاجة إلى التّعرّف على ذواتهم ومواقفهم حول التّربية الجنسيّة، والتّعامل معها بشكل واع. ففي غالبيّة الأحيان تبقى هذه المعتقدات مغلقة كاستمرار للتّابو الاجتماعيّ حول

التّربية الجنسيّة، لكنّها تنعكس في العمليّة التّربويّة اليوميّة.

فمعتقداتنا ومفاهيمنا صحيحة كانت أم خاطئة تؤثّر على سلوكنا مع أطفالنا. فكثيرًا ما نسمع مربّية تقول: "زاوية اللعبة للبنات وزاوية المكعّبات للبنين"، "أنت رجل لا تبكِ" وغيرها من أقوال مرتبطة بهويّة الطّفل الجنسيّة وبتقسيم وظائفيّ بناء على الجنس. أليست هذه تربية؟ ألا ترغبون أنتم كأهل في معرفة المفاهيم والمعتقدات الّتي تبنى لدى أطفالكم؟ ألا ترغبون أنتم كمربّين ومربّيات أن تفحصوا أنفسكم وكيف تعكسون معتقداتكم لأطفالكم؟ وما هي نتائج هذا المسار؟

يمكن أن يتمّ هذا الأمر خلال تدريب المربّين والمربّيات، بفتح موضوع التّربية الجنسيّة للنّقاش ولاستفسار المربّين. ويمكن إجراء تدريبات خلال العمل لمناقشة الموضوع ومشاركة المربّين والمربّيات في استيضاح مفاهيمهم ومعتقداتهم.

يمكننا البدء بإجراء مراقبات في الحقل حول التّربية الجنسيّة المخفيّة[١١] الّتي نقوم بها حاليًّا، وأخذ عيّنات من هذه المراقبات لدراستها بالاشتراك مع المربّين والمربّيات وفحص وسائل أخرى للتّعامل معها.

أهداف التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة:

تنعكس أهداف التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة في جميع مجالات العمليّة التّربويّة اليوميّة، وترتبط بقدرات طفل الحضانة أو الرّوضة على الإدراك. وإذا لم تلقَ اهتمامًا واحترامًا منّا فإنّها ستكون عشوائيّة ورسائلنا ستكون:

- أنت لوحدك، يجب أن تتدبّر أمرك لوحدك.
- نموّك الجنسيّ لا يخصّني.
- لا تتحدّث عن الجنس، "عيب".

هذه الرّسائل تترك الطّفل بالفعل لوحده عندما لا يستطيع التّوجّه لأهله أو لمربّيته بأسئلته ومشاعره.

١١ استعمال وسائل المراقبة والمشاركة الفعّالة خلال عمليّة التّدريب هو أمر أساسيّ لتذويت التدريب ومحتوياته، لكي لا يصبح موضوع التّربية الجنسيّة أحد المواضيع الّتي تعلّم نظريًّا، ثم بخروج المربّين أو المربّيات إلى الحقل يوضع الموضوع على الرّفّ أو يعلّق مع الشّهادة على الحائط.

وعليه فإنّ أهداف التّربية الجنسيّة في الحضانة والرّوضة هي:

١. تطوير مفهوم الطّفل عن جنسانيّته وزيادة تقديره لذاته.

٢. تطوير مفهوم للحبّ والمشاركة.

٣. إدراك وفهم الفوارق بين البنين والبنات.

٤. إدراك وفهم الفوارق والوظائف في الحياة العائليّة.

٥. دعم العائلة في التّربية وبضمنها التّربية الجنسيّة.

حتى الآن هنالك اتّفاق غير مكتوب بين الأهل والحضانة أو الرّوضة بعدم التّطرّق إلى التّربية الجنسيّة بشكل مباشر. لكن وبناءً على ما ذكر، فإنّ هذا الموقف يفتح المجال للتّربية الجنسيّة العشوائيّة غير الواعية لماهيّة الرّسائل الّتي تمرّر للطّفل.

لهذا فالمسؤوليّة اليوم تقع على عاتق الأهل والمربّين ومؤسّسات التّربية عامّة، بأن تشترك فيما بينها لتحديد أهداف التّربية الجنسيّة ووسائلها.

إحدى الطّرق لفعل ذلك هي فتح باب الاستكمال بموضوع التّربية الجنسيّة أمام المربّين والمربّيات والأهل. من المهمّ مشاركة هذه الأطراف في النّقاش حول مبادئ التّربية الجنسيّة، ومن ثمّ بلورة أهدافها، ولغتها وطرق تطبيقها. إنّ تذويت نتائج هذا المسار ومراقبة تنفيذها وإعادة تقييمها يساعدنا في الوصول إلى الأفضل لأطفالنا.

تربية جنسيّة خالية من تقسيم الوظائف:

على الرّغم من أنّ الأطفال يصلون إلى الحضانة خلال الثّلاث سنوات الأولى وإلى الرّوضة بعمر ٣-٤ سنوات، فإنّنا نستطيع مراقبة سلوكيّات خاصّة يأتون بها إلى الحضانة أو الرّوضة وتحظى بتدعيم وتشجيع المربّين والمربّيات.

هذه السلوكيّات تستند إلى تقسيم وظائف مبني على أساس الجنس: فكلّ من الوالدين يحبّ الطّفل ويهتمّ به ويشبع احتياجاته، ومن يغلي الحليب في البيت مثلاً أو من يغيّر للطّفل مرتبط بتقسيم الوظائف الفرديّ الّذي حدّده الزوجان معًا. وهو تقسيم مختلف من عائلة إلى أخرى. هذه التّعدّديّة في أنماط تقسيم الوظائف في العائلات المختلفة تتطلّب منّا احترامًا وتقبّلاً، ينعكسان في الامتناع عن فرض آرائنا بواسطة تحديد ما هو للأمّ وما هو للأب بنظرنا.

ففي عائلة سلفيني مثلاً يغيّر الأب للطّفل ملابسه في الصّباح والأم تعدّ الزّوّادة، بينما في عائلة دلفيتي– الأمّ تغيّر والأب يعدّ الزوادة، فهل يقع ضمن مسؤوليّتنا كمربّيات القول إنّ عائلة سلفيني أفضل من عائلة دلفيتي، أم علينا أن ندعم كلا العائلتين ونفتح المجال للأطفال للتّعرّف على النماذج المختلفة واحترامها؟

إنّ حاجات النّموّ لدى البنات مشابهة لحاجات النّموّ لدى البنين، فجميعهم بحاجة إلى لعب تمثيليّ وجميعهم يمارسونه للتّعرّف على ذواتهم وعلى من حولهم، وجميعهم يتعلّمون من التّجربة العينيّة ومراقبة الآخرين. فجميع الأطفال، بنون وبنات، يحبّون تقليد آبائهم وأمّهاتهم في أعمالهم اليوميّة، وجميعهم يحبّون انتعال الكعب العالي أو حذاء الأب وفستان الأم. ولكنّنا ومن خلال اتّصالنا معهم نمنعهم، وبهذا نوجّههم لوظائف محدّدة وبالتّالي نكرّس تقسيم الوظائف الجنسويّ غير المتساوي في المجتمع. على الرّغم من أنّنا نسمع العديد من النّساء يتذمرّن من عدم مشاركة أزواجهنّ في الأعمال البيتيّة، وعلى الرّغم من أنّ المرأة تعمل خارج البيت أيضًا ويعود الإثنان معًا إلى البيت، تراه يجلس هو ليقرأ جريدته أو ليعمل بأعماله الخاصّة، بينما "تنغمس" هي بالطّبيخ والغسل والكنس وما إلى ذلك من وظائف! على الرّغم من هذا التّذمّر، نراها في تربيتها لأبنائها وبناتها تعيد تكريس هذه الوظائف دون أن تعي أنّ منعها الطّفل من اللعب التّمثيلي وتقليدها في المطبخ مثلاً هو رسالة له أنّ هذا المكان ليس مكانه. فكم من طفل حاول الوقوف بجانب أمّه عند المجلى ومنعته، بينما عندما تحاول الطّفلة ذلك تلقى كلّ التّشجيع وتعطى كلّ الإمكانيّات للتّجربة.

يجب أن نسعى في البيت والحضانة والرّوضة لأن نوفّر للبنات وللأولاد كلّ الإمكانيّات ليتعرّفوا على جميع الوظائف والسّلوكيّات، ويجربوها حتّى يستطيعوا الاختيار فيما بعد بناءً على معرفتهم بهذه السّلوكيّات.

إن التّربية الخالية من تقسيم وظائف تقليديّ لا تدعم الأفكار النّمطيّة السّائدة حول البنين والبنات. هذه الأفكار تتلخّص بـــ:

- البنات يلعبن بالدّمى والبنون بالسيارات.
- البنات أنعَم من البنين.
- البنات يتحدّثن عن الصّراعات. والبنون يحاولون الابتعاد عن الأحاديث حول الصّراع.
- البنون يقضون وقتًا طويلاً في زاوية المكعّبات. والبنات في زاوية اللعبة.
- البنون عدوانيّون. والبنات مسالمات.
- البنات خجولات. والبنون يفرضون إرادتهم بصوت عالٍ وبشكل ملحّ.

- اللّعب التّمثيليّ لوظائف عائليّة شائع بشكل أساسيّ بين البنات، في حين يميل البنون إلى ألعاب الحرب والعصابات و"الكاوبوي".
- البنات يظهرن قدرات عمليّة أكثر من البنين (ربط الرّباط، جلي – غسل الصّحون –، تكنيس وغسيل).

بعض الأفكار حول التّربية الجنسيّة في الحضانة:

عندما استعرضنا مراحل النّموّ الجنسيّ للأطفال، ذكرنا أنّ هنالك صفات مميّزة لكلّ مرحلة. وفي السّنوات الثّلاث الأولى أهمّ هذه الظّواهر لدى الطّفل هي:

١. التعرّف على ذاته، بما في ذلك التّعرّف على أعضائه الجنسيّة.

٢. حبّ الاستطلاع بمظاهره المختلفة.

وكما هو معروف فإنّ تعلّم الطّفل وتعرّفه على ذاته في السّنوات الأولى يتمّ من خلال تجربة الطّفل مع ذاته ومع بيئته، ومراقبته للآخرين وردود فعل البالغين من حوله.

فطفل الحضانة تتوفّر لديه تجارب مميّزة لتنمية جميع المجالات، وردود فعلنا على تجاربه تتحدّد بناءً على تقييمنا لهذه التّجارب. فنفرح عندما يمسك المكعّبات أو عندما يلعب مع الدّمية، ونمنعه عندما يحاول الاقتراب من الفُرن. ومع الوقت يتعلّم أن يبتعد عن الفُرن ويتابع استكشافاته وتمتّعه باللعب في المكعّبات. ولهذا نرى من المهمّ أن نستوضح موقفنا من تجارب الطّفل مع جسده ومع أعضائه الجنسيّة. وهنالك حاجة للاتّفاق بين الأهل والمربّيات حول أسس التّعامل مع الطّفل.

توفّر الحضانة تجارب مُثيرة وغنيّة للتّربية الجنسيّة الشّموليّة فهي استمرار للحياة اليوميّة. يساهم تعاملنا مع هذه التّجارب في بناء الرّؤية الذّاتيّة الجنسيّة بسلبها وإيجابها.

تتشابه أسس التّعامل العامّة مع الطّفل، فتنطلق من احترام الطّفل وكونه مركز العمليّة التّربويّة ومن أهمّيّة الوضوح والحزم والمثابرة في تعاملنا. هنالك حاجة للاتّفاق بين الأهل والمربّيات حول أسس تعاملنا مع الأطفال.

يتعرّف الطّفل من خلال تجاربه مع جسمه ومن خلال تعاملنا معه، ومرافقتنا إياه على جسمه وأعضائه المختلفة وعلى وظائف هذه الأعضاء. فيتعلّم أنّ العضوّ الّذي يمسك به الأشياء يسمّى يدًا والعضو الّذي يشمّ به يسمّى أنفًا، ولا توجد مشكلة في تسمية هذه الأعضاء. ولكنّ الأمر مغاير عندما يتعلّق الأمر بالأعضاء الجنسيّة، فالتّسميات هنا إنْ وجدت فهي عديدة ومختلفة، لذلك فمن

المهمّ الاتّفاق مع الأهل حول المصطلحات الّتي نستعملها وحول أسس التّربية الجنسيّة. فتوضيح الأمر فيما بيننا أوّلاً هو أمر أساسيّ لكي لا نبلبل الطّفل. عندما نتدرّب على استعمال الكلام الصّحيح دون خجل أو حرج، سنستطيع تسميتها لأطفالنا كما نسمّي له اليد والأنف والقدم.

تنعكس التّربية الجنسيّة الشّموليّة في الحضانة على جميع مجالات الحياة اليوميّة للطّفل. فكيفيّة استقبالنا له وكيفيّة العناية به والغيار والطّعام واللعب. كلّها تجارب مميّزة تساهم في نموّ الطّفل في جميع المجالات، أيْ أنّها تنعكس خلال عملنا المباشر مع الطّفل وعملنا غير المباشر.

فعّاليّات غير مباشرة:

ممّا لا شكّ فيه أنّ جميع أعمالنا في الحضانة توفّر إمكانيّات غير مباشرة للأطفال للتّعرّف على أجسامهم، لكنّ البيئة التّربويّة وتنظيمها في الحضانة يعدّ من أعمالنا غير المباشرة مع الطّفل.

تنظَّم البيئة التّربويّة بتلاؤم مع احتياجات الأطفال، ومن خلال تنظيمها تنعكس رؤيتنا التّربويّة وتوجّه رسائلنا غير المباشرة للطّفل. فتوفير إمكانيّات مختلفة للأطفال للتّعرّف على أجسامهم ولمراقبة أجسام بعضهم البعض: فلا توجد حمّامات منفصلة للذّكور والإناث، تتوفّر في الحضانة زوايا للانزواء وهنالك الفرشات المريحة للطّفل إذا رغب في أن يكون لوحده.

وجود طاولة الغيار قريبة من مكان تواجد الأطفال هو حاجة عمليّة للمربّية ليمكّنها من مراقبة الأطفال، كما تقدّم إمكانيّة غير مباشرة للمربّية لأن تعطي نموذجًا للأطفال حول كيفيّة التّعامل مع أجسام غيرنا، فعند قيامها بالغيار للطّفل تشاركه في عمليّة الغيار فتسأله كيف يشعر؟ وهل تضايقه؟ وهل يرغب في الغيار؟ وجود طاولة الغيار القريبة من الأطفال يوفّر أيضًا إمكانيّة للمراقبة وللتّعرّف على أجسام الأطفال الآخرين.

اللغة الّتي نستعملها تعكس أيضًا أفكارنا ومعتقداتنا، لهذا من المهمّ الاهتمام بها ومراقبة أنفسنا وكيفيّة استعمالنا للمصطلحات المختلفة المتعلّقة بالأعضاء الجنسيّة خصوصًا.

فعّاليّات مباشرة:

الحياة اليوميّة في الحضانة مليئة بالإمكانيّات والفعّاليّات الّتي تقدّم فرصاً مباشرة للتّربية الجنسيّة. غالبيّة أطفال الحضانة يحتاجون إلى مساعدة عند ذهابهم إلى الحمّام مثلاً أو عند الغيار لهم.

يعدّ هذا الوقت الأمثل لإكتسابهم العادات الملائمة للنّظافة الشّخصيّة، ولإعطائهم نموذجًا من خلال تعاملنا مع أجسادهم. فعندما نلاحظ أنّ طفلاً ما بحاجة إلى الغيار يمكننا أن نسأله هل ترغب في الغيار؟ ما رأيك بأن أزيل عنك الغيار الوسخ لأضع غيارًا نظيفًا؟ إنّ مثل هذا التّعامل يُشعره أنّ

له كيانًا خاصًّا ومميّزًا ومحترمًا، ممّا يساعده في المستقبل على احترام الآخرين. كما وأنّ كيفيّة تنظيفنا لأعضائه وكيفيّة تنشيفنا له تشمل أيضًا رسائل مهمّة للتّربية الجنسيّة.

هذا الوقت هو الأمثل للإجابة عن تساؤلاتهم عندما يوجّهونها لنا. إنّ أسئلتهم تعبّر عن نضجهم وعن حاجاتهم للمعرفة وهي نتيجة لحبّ الاستطلاع الطّبيعيّ لديهم. ودور المربّية في مثل هذه الحالة هو الإجابة الصّحيحة المتلائمة مع مستوى نموّ الأطفال.

إذا تعاملنا مع حبّ الاستطلاع بطريقة عاديّة – أي دون اللّجوء إلى المنع المفرط والحرمان أو الضّرب والعيب أو التقزّز، فإنّ الأطفال سيتعلّمون التّعامل مع أعضائهم بشكل إيجابيّ ودون إضفاء المعاني الإضافيّة، وسيتقبّلون أنفسهم وبناء هويّتهم الجنسيّة.

توفّر الحضانة إمكانيّة للتّعامل مع أبناء وبنات الجيل الواحد – أيْ أنّ احتياجاتهم متشابهة أو متقاربة فلا خوف عليهم من الاستغلال الّذي يمكن أن يحدث ممّن هم أكبر سنًا، فجميعهم يتواجدون في المرحلة نفسها ولهم الاحتياجات نفسها في التعرّف على ذواتهم. فحتى اهتمامهم بالآخرين ناتج عن رغبة في التّعرّف على الذّات من خلال مقارنة ما لديهم بالآخرين، فلا حاجة للخوف من التّعامل معهم بوضوح.

يمكننا أيضًا المبادرة إلى فعّاليّات تسهم في بناء الرّؤية الذّاتيّة للأطفال، كالقيام بحمّام مشترك لمجموعة من الأطفال، أو توفير إمكانيّة للّعب بالماء بإعطاء طشت من الماء لكلّ طفل. توفيرنا مثل هذه الفعاليّات ومرافقتنا لها يوفّر إمكانيّة للتّعرّف الصّحّيّ على أجسامهم.

توصيات عمليّة للعمل في الرّوضة:

يتمّ التّعلّم من خلال التّجربة، لذا على الرّوضة أن ترى ذاتها كإطار يوفّر التّجارب المثيرة والمُغنية للطّفل. تتمّ التّجارب عادة في الظّروف العينيّة للحياة اليوميّة، وهي ليست تمارين منفصلة عن هذه الحياة. فمثلاً لا يكفي تنظيم "أسبوع صحّة" في الرّوضة لتعليم الأطفال عادة تنظيف الأسنان، بل يجب أن يتمّ ذلك من خلال المحافظة على تنظيف الأسنان يوميًّا، صباحًا ومساءً، في البيت وبعد كلّ وجبة طعام في الرّوضة.

لكي نستطيع تطوير عملنا مع الأطفال، وزيادة إمكانيّات التّجارب المرافقة للحياة اليوميّة، يجب أن نراقب الأطفال خلال عملهم في مجموعاتهم للتّعرّف عن كثب على احتياجاتهم ومميّزاتهم وملاءمة عملنا لها. أضف إلى ذلك أهمّيّة التّنسيق والتّعاون بين أفراد الطّاقم العامل مع الأطفال لتوفير تجارب متلائمة مع مستوياتهم.

إنّ التّربية الجنسيّة في الرّوضة تنعكس في جميع مجالات الحياة اليوميّة، فليست الحياة اليوميّة في الرّوضة مقتصرة على الفعاليّات المنظّمة على يد المربّية ومبادراتها فحسب، بل هي أوّلاً البيئة التّربويّة الّتي تسمح للأطفال أيضًا بإجراء التّجارب والاستكشاف بشكل مستقلّ، وهي أيضًا المحتويات العامّة للبرنامج. لذا فمن الضّروريّ أن يكون البرنامج اليوميّ مرنًا ليُجيب عن احتياجات الأطفال جميعهم.

ينعكس اهتمامنا في البيئة التّربويّة بمدى توفيرنا للإمكانيّات للتّعرّف على الذّات، كوجود مرآة في الحمّام، وزاوية للإنعزال أو إتاحة الفرصة للطّفل للّعب التّمثيليّ ولتقمّص هويّة الأم أو الأب، وذلك بتوفير المساحة والمعدّات الّتي تسمح بذلك. إن وضع دمى كاملة الأعضاء بما فيها الأعضاء الجنسيّة وما شابه من ترتيبات توفّر للطّفل إمكانيّات للتّجربة الذّاتيّة الحرّة.

أمّا المبادرات التي تقدّمها المربّية فيجب أن تكون أيضًا مرنة ومقدّمة لمجموعة أطفال محدّدة حسب حاجة المجموعة وفي أوقات مختلفة، دون إجبار الأطفال على الإشتراك. هذا ما يوفّره النّظام اليوميّ المفتوح الّذي يلائم نفسه واحتياجات ومميّزات الأطفال، لا البرنامج المخطّط حسب أيّام ومواضيع وساعات. وسنقدّم في هذا الفصل بعض الاقتراحات العينيّة حول المبادرات والمحتويات.

تجدر الإشارة إلى أنّه بإمكان العمل التّربويّ المتعلّق بالتّربية الجنسيّة في الرّوضة أن يتمّ بشكل مباشر وغير مباشر.

فعّاليّات مباشرة:

يمكن أن تتمّ هذه باختيار المربّية للظّروف الملائمة واستعمالها في البرنامج اليوميّ، أو تخطيط برنامج واسع يأخذ بالحسبان المستوى الفعليّ، فضلاً عن تجارب عينيّة للمحتويات. فيمكن أن تتّفق المربّية مثلاً مع والدة أحد الأطفال الحامل على الحضور والمشاركة في تجربة الأطفال، وذلك عن طريق زيارات تقوم بها هذه الأم للرّوضة، بخاصّة في الأشهر الأخيرة للحمل حيث يستطيع الأطفال خلالها التّوجّه إليها وسماع حركة الطّفل في بطنها.

يمكننا أيضًا تحضير كتاب قصّة حول تطوّر الطّفل في بطن أمّه، بواسطة صور حقيقيّة تجلبها الأم من طبيبها وصور أكثر وضوحًا من كتب أو موسوعات.

بعد الولادة، يمكننا القيام بزيارة للأم في البيت أو المستشفى، إذا سمحت إدارة المستشفى بذلك. فنقوم بترتيب مُسبق مع قسم الولادة ليستطيع الأطفال مشاهدة المواليد في المستشفى.

مثل هذه التّجارب ستُثير الأطفال في فعّاليّاتهم الإبداعيّة أيضًا، وسنلحظ ذلك في رسوماتهم وفعاليّاتهم الأخرى. إن مراقبتنا لهم في فعاليّاتهم المتنوّعة ستساعدنا في تخطيط المزيد من الأنشطة الملائمة لهم.

فعاليّات غير مباشرة:

نقصد بالفعّاليّات غير المباشرة هو أن نوفّر للأطفال المكان والوقت لمعايشة ذواتهم وجنسانيّتهم، كتنظيم زاوية هادئة داخل البيئة التّربويّة مثلاً، بحيث توفّر هذه الزّاوية الأمان والشّعور بالخصوصيّة. كما يمكننا توفير إمكانيّات أخرى في البيئة التّربويّة من شأنها المساهمة في التّربية الجنسيّة بشكل غير مباشر كما ذكرنا أيضًا من حمامات غير منفصلة، كتب حول النّموّ الجنسيّ (شرط أن تلائم مستوى نموّ الأطفال) بحيث يستطيع الأطفال إيجادها في زاوية القصّة والتّوجّه إليها متى يشاءون، ويمكنهم التّوجه إلى المربّية بالأسئلة. يمكننا أن نوفّر في زاوية اللعبة دمى كاملة الأعضاء بما فيها الأعضاء الجنسيّة بالإضافة إلى زاوية الطّبيب.

تربية جنسيّة غير نمطيّة في الرّوضة:

التّربية الجنسيّة الحياتيّة غير النّمطيّة تبدأ بتنظيم البيئة التّربويّة، وتنتهي باقتراحات للّعب والنّشاط المشترك.

- **البيئة التّربويّة:**

هنالك عدّة إمكانيّات يمكننا توفيرها في البيئة التّربويّة في الرّوضة كمساهمة منّا في التّربية الجنسيّة غير النّمطيّة، منها:

- إيجاد زاوية للرّاحة والانزواء.
- زاوية العيادة تتوفّر فيها أطبّاء / طبيبات، ممرّضون / ممرّضات، صيدلانيّة ..
- حمّامات مشتركة للجنسين.
- مرآة في الحمّام ومرآة في زاوية البيت.
- دمى كاملة الأعضاء في زاوية البيت، بما فيها أعضاء جنسيّة.
- توفير قصص وصور ملائمة في زاوية الكتاب.
- توفير إمكانيّات للّعب التّمثيليّ للبنين والبنات.
- زاوية العالم الصّغير – بيت، دكّان، عيادة، بريد، مكعّبات بجانبها.
- توفير مسرح دمى يحتوي على دمى لشخصيّات غير نمطيّة.
- تزيين البيئة بصور لنماذج ووظائف غير نمطيّة.

- التّحدّث إلى الطّفل والطّفلة بشكل متساوٍ.
- استعمال اللغة الصحيحة، وذكر أسماء الأعضاء الجنسيّة بشكل طبيعيّ.

هذه هي بعض الاقتراحات للبيئة التّربويّة نوردها هنا دون الدّخول في تفسيرات حولها.

• اقتراحات للّعب والنّشاط المشترك:

نستطيع البدء، بشكل تدريجيّ، بإثارة اللّعب المشترك بين البنات والبنين. ومن أجل ذلك من المهمّ أن نضع زاوية العالم الصّغير وزاوية المكعّبات متجاورتين دون وضع فواصل بينهما لدعم الصّلة وتشجيعها بين الأطفال.

يمكننا إجراء حفلة دمى يشترك فيها جميع الأطفال، أو حمّام للدمى أو حفلة عصابات يشترك فيها الأطفال كلّهم.

اختيار القصص والشّخصيّات لمسرح الدّمى الخالية من وظائف نمطيّة.

يمكننا صنع كولاج حول المهن غير التّقليديّة للجنس الآخر، وآخر حول وظائف عائليّة غير نمطيّة.

يمكننا توفير كتب تحتوي على شخصيّات ونماذج يستطيع الطّفل التّماثل معها.

وأخيرًا، فإنّ العمل مع الأطفال بحاجة إلى إبداع ومُتعة. وأنا على ثقة ويقين بقدراتكم وقدراتكنّ لتطوير الأفكار الأوّليّة المعروضة هنا.

المراجع

- Manfred Berger: **Sexual Erziehung im kindergarten**; Frankfurt (Main); Brandes & Apsel 1988
- Cyril Bibby, M.A., M.Sc., F.L.S. Cloth. **Sex Education: A Guide for Parents, Teachers and Youth Leaders**; Emerson Books, Inc., 251 West 19th St., New York 11, 1946.
- Clint E. Bruess, Jerrold S. Greenberg; **Sexuality Education: Theory and practice** - Jones and Bartlett 2009.
- Selma H. Freiberg; **The magic years**; Simon & Schuster 1996
- Suzanne G.Frayser, Thomas J. Whitby: **Studies in Human sexuality**; A selected guide 1995 – 1987
- Thilde Fox: **Fair play for boys and girls- Towards Equal opportunity**.
- Janice M. Irvine: **Talk About Sex: the Battles over sex education in the United States**: The University of California 2002.
- Clyde M.Narramore Ed.D: **How to tell your children about sex**; Zonder Van Publishing House Grand Rapids Michigan 1964
- Paul Robinson: **The Modernization of sex**; New York, Cornell University Press 1989.
- Rex S.Rogers (edt) **Sex Education**; Rationale and Reaction; Cambridge University press – 1974.
- Arlene Uslander and Caroline Weiss: **Dealing With Questions About Sex**; Learning Handbooks 350 University Avenue 1975 Palo Alto California 94301
- John willey and sons Inc.; **How to talk with children about sex**;
- Joy L Walker: **A qualitative study of parents' experiences of providing sex education for their children: The implications for health education**: *Leeds Metropolitan University* Journal of Transcultural Nursing April 1, 2009 20: 156-163
- Knorad Weller; **Sexualerziehung in der Familie; Das Familienhandbuch des Staatsinstituts fur Fruhpadagogik** (IFP) Letzte Anderung 12.11.2010

- أميّة الخمّاش – **سيكولوجيّة التّربية الجنسيّة عند الأطفال.**(إصدار المؤلف)
- محمّد الحاج علي – **التّربية الجنسيّة** – إصدار مكتبة ابن خلدون – الطّيْبة ١٩٩٢.
- نبيلة اسبانيولي + د. هالة اسبانيولي **الجنسوية في أدب الأطفال،** إصدار مركز الطّفولة – مؤسّسة حضانات النّاصرة سنة ٢٠٠٢
- د. هالة اسبانيولي، رهام أبو العسل، نبيلة اسبانيولي، منى ظاهر، **الجنسويّة في الكتب المدرسيّة،** إصدار مركز الطّفولة – مؤسّسة حضانات النّاصرة ٢٠٠٩.
- د. هالة اسبانيولي **صور عائليّة،** إصدار المؤلّفة سنة ١٩٩٥.